الباب الأول

العوامل الفعالة في الوطنية

الفصل الأول

فجر الوطنية

يصل كثير من المؤرخين يقظة مصر وطموحها إلى الاستقلال بالحملة الفرنسية ، متخذين من فورة الشعور الوطني في أعقاب الحملة ذريعة إلى الربط بين يقظة المصريين وحملة نابليون .

ولو أن هذا الرأي صحيح على إطلاقه ما كان على مصر غضاضة في أن توقظها حملة نابليون ، لأنها إذاً نفخت في الهامدين فقاموا ، ونبهت الغافلين الذين استناموا . وليس في هذا عجب ، لأن الأمم تتبادل منذ أقدم العصور التأثير والتأثر ، كما تتقايض السلع وعروض التجارة وألوان الثقافة ، ولأن الثورة الفرنسية كان لها صدى ودوى في أوروبا ، فتأثرت بها أمم شتى ، ولم تجد غضاضة في أن تعزو تأثرها إلى فرنسا .

لكن الحق أن مصر لم تستفق من غفلتها أول مرة على قرع الجيش الفرنسي ، ولم تثر على الحكم المطلق مقتدية بثورة فرنسا فحسب في آخر القرن الثامن عشر .

فليس من الطبيعي أن تتطلب أمة مثلا أعلى في حياتها تشبهاً بغيرها من الأمم إن لم تكن متبرمة بحالها ، بصيرة بما تعاني من عسف ومساءة ، توّاقة إلى أن تبدّل بحالها خيراً منها ، جادّة في مسعاتها لبلوغ أهدافها .

ولقد كانت مصر قبل الثورة الفرنسية ، وقبل غزوة نابليون ، تسخط حالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى كثير من الآونة ، وتشرئب إلى حياة خير من هذه الحياة ، وتتخذ من الوسائل ما يكفل لها أن تحقق أملها .

وليس أدل على ذلك من أنها لم تصبر طويلا على حكم العثمانيين لها ، فسرعان ما استرد الأمراء المماليك نفوذهم ، وجعلوا من الوالى العثمانى رمزاً للسيادة التركية ، لا حاكماً مُسلَّطاً يستأثر بالسلطان .

ذلك بأن مصر مُنِيَتْ بالفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) . إذ هجم عليها السلطان سليم الأول ، وقضى على سلطنة المماليك البرجية (الشراكسة) [1] فصارت مصر تابعة لتركيا إلى سنة ١٧٩٨ م .

وفى أول الحكم العثمانى كانت السلطة العليا للوالى العثمانى الملقب بالباشا ، وكان يساعده (الديوان) المكون من ضباط الفرق التركية ، وقلة من كبار المصريين .

أما المماليك فقد اختصوا بحكم الأقاليم (المديريات) .

لكن لم يمض إلا زمن قصير حتى تنازع الولاة ورؤساء الجنود ، فأخذ الأمراء المماليك يجدون فى الاستئثار بالحكم والنفوذ ، وساعدهم على ذلك ضعف الدولة العثمانية فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وكثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم ، ثم صار أكثر رؤساء الفرق وضباطها من المماليك ، وأصهر كثير من ضباط الجند والجند العثمانيين إلى المماليك ، فناصروهم بعد أن كانوا معادين لهم ومُعِدِّين لحربهم .

فضعف نفوذ الولاة العثمانيين ، وقوى نفوذ الأمراء المماليك ، واسترجعوا بمرور الزمن سلطة الحكم التى كانت لأسلافهم من المماليك البحرية والبرجية .

---

(١) المماليك نوعان : مماليك أصلهم من أواسط آسيا وشمالها ، استكثر منهم الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، وجعلهم خاصة جنده وحاشيته ، واتخذ منهم أمراء دولته ، وأسكنهم فى جزيرة الروضه بالنيل ، وكان يسمى عند تفرعه بالبحر ، لعظم اتساعه ، فسموا بالمماليك البحرية . وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢م . ومماليك أصلهم من بلاد الشركس والقوقاز ، وقد عهد إليهم المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية أن يحموا القلاع والحصون ، وأسكنهم فى الأبراج ، فسموا المماليك البرجية وهم الذين تولوا سلطنة مصر من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧ م .

وصار لرئيس المماليك الذى يختارونه زعيما لهم ويلقبونه (شيخ البلد) نفوذ لا يعارض ، وصارت مشيخة البلد بمثابة إمارة مصر .

فلم يكن عجيباً أن عبث المماليك بالولاة ، وأن عزلوا من لم يرتضوه [1] ، وأن صار الديوان مؤلفاً من الأمراء المماليك وحدهم .

قال الرحالة فانسليب Vansleb فى وصفه لما شاهده فى مصر سنة ١٦٧٢ م : إن كلمة الأمراء (البكوات) نافذة فى الديوان ، ولم يكن الباشا (الوالى) يخالف لهم أمراً ، وكانوا يستطيعون أن يعزلوه [2] .

محاولات استقلالية

نبتت فى مصر بذرة الوطنية قبل الحملة الفرنسية ، ممثلة فى الأمراء المماليك تارة ، وممثلة فى الشعب المصرى تارة .

أما الأمراء المماليك فقد أشعروا الدولة العثمانية مرات أن مصر ليست ولاية عثمانية بالمعنى الذى تفهمه تركيا من تبعية ولاياتها إليها . بل لقد جعل أحدهم استقلال مصر حقيقة واقعة .

ويحسبنا هذه المحاولات الثلاث

المحاولة الأولى :

دبر الوالى التركى راغب باشا مكيدة للقضاء على المماليك ، ونجح تدبيره ، إذ قضى على كثير من زعمائهم غدراً ، فنهض زعيمان من الباقين هما إبراهيم بك كخيا (كتخدا) وإسماعيل بك رضوان وتصديا لإحباط ما يريده الوالى من القضاء على مماليك مصر ، والخلاص من منازعتهم إياه ، والاطمئنان إلى زوال النفوذ المصرى . فاحتلا القلعة ومعهما الجنود ، وكان غرضهما أن يخلعا الوالى ، فأبى ، فأطلقوا عليه النار . فعلم أن الأمر جد ، فخضع ، واستسلم ، فسجنوه ، ثم سمحوا له بأن يغادر مصر سنة ١٧٤٨ م

(١) فى سنة ١٧٦٣ م (١١٧٤ هـ) عزلوا الوالى أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان ، وولوا مكانه مصطفى باشا وكتبوا بذلك للدولة ، فنقلتهما معا ، وولت آخر (الجبرتى ١/ ٢٥٠) .

وفى سنة ١٧٦٨ م خلع على بك الكبير الوالى التركى وحاصره .

وفى سنة ١٧٧٣ م (١١٨٧ هـ) بعد مقتل على بك كان الوالى التركى مسلوب السلطة لأن الأمر كله بيد محمد أبى الذهب والأمراء والأعيان (الجبرتى ١/ ٤١٣) .

(٢) تاريخ الحركة القومية ١/ ٢٠ الرافعى .

وصار إبراهيم ورضوان حاكمي مصر ، وصار الولاة الذين تبعثهم الدولة بعد ذلك لهم من الولاية اسمها لا معناها . وتشجع المماليك بعد فوزهم على أن يخلعوا أى وال لا يرضون سياسته[1] .

المحاولة الثانية :

تتحقق فيما بذله على بك بلوط قبان[2] ، وهو الذى سمى الكبير فيما بعد . كان مملوكا لإبراهيم كتخدا القازدغلى ، ثم وصل إلى مشيخة البلد سنة ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) باختيار أكثر الأمراء[3] .

وكان منذ بزغ نجمه طموحا إلى الاستئثار بالحكم ، طلعةً إلى الاستقلال بمصر . وقد سلك إلى تحقيق مطامعه عدة خطوات :

(١) عزل الوالى التركى ، إذ واتته الحالة على عزله ، ذلك بأن الحرب كانت قد نشبت بين الروسيا وتركيا ، فاستمده السلطان باثنى عشر ألف مقاتل ، فلبّى رغبة السلطان ، على ما يحقق حلمه هو ، فأخذ يجمع فى المدد المطلوب أعداءه من كبار المماليك الذين تحرروا من سادتهم ، ولم ينضموا إلى مماليكه ، ومن السناجق الكُشّاف ، ومن ضباط الجيش التركى بمصر ، وممن ينتون إلى أصل تركى . وكانت هذه خطة بارعة يتخلص بها من خصومه ، ويحقق بها رغبة السلطان .

لكن أعداءه اتفقوا مع الوالى التركى على الوشاية به ، فكتبوا تقريراً إلى السلطان يدعون فيه أن على بك إنما يريد بالجيش الذى يجمعه أن يعضُد الروسيا ليستقل بمصر . فأرسل السلطان إلى الوالى محمد باشا أمراً بقتله وإرسال رأسه إلى الآستانة سنة ١٧٦٨م (١١٨٢ هـ)

وعلم على بك بذلك من أصدقائه بالآستانة ، فاحتال حتى أخذ الفرمان قبل أن يصل إلى الباشا ، وجمع الديوان ، وبين للبكوات أن القتل ليس له وحده ، وإنما لهم

---

(١) تاريخ الجبرتي ١/٢٥١ وتاريخ مصر الحديث ٢/٥٠ — ٥٥ جرجى زيدان .

(٢) بلوط قبان : مهلك اللصوص ، لقب بذلك لأنه ساعد سيده إبراهيم بك فى القضاء على منافسيه فى مشيخة البلد ، متذرعا بأنهم لصوص سرقوا أموال الحج ولم يوصلوها إلى مستحقيها فى الحجاز .

(٣) الجبرتي ١/٢٥٤ - ٢٥٨

جميعاً ، ثم قال لهم : « دافعوا إذاً عن حياتكم وحقوقكم ، واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها المماليك الذين كانوا سلاطين أشداء ، تفاخر بهم الأرض السماء ، فأعيدوها إليهم . وهذه فرصة ، فلا تضيعوها ، فإنكم لن تعثروا على مثلها . هلموا نسعى إلى الاستقلال ، فإن فيه حياتنا وحريتنا » ، فتأثروا بقوله وعاهدوه على العمل والوفاء .

أما خصومه من المماليك فقد خشوه ، ولاذوا بالسكينة[1] .

فلم يكن أمامه إلا أن يخلع الوالى التركى ، فاستصدر أمراً من الديوان بعزله ، وحاصره بجنده ، وأنزله من القلعة إلى منزل اعتقله فيه ، وتولى هو حكم مصر (قائمقامية مصر) عوضا عن الباشا المخلوع فى أكتوبر سنة ١٧٦٨ م (١٧ رجب سنة ١١٨٢ هـ)[2] .

وأراد أن يتألف الدولة فأرسل هدايا إلى السلطان ورجاله .

وظل الوالى محمد باشا محجورا عليه حتى توفى سنة ١٧٦٩م (أوائل سنة ١١٨٣هـ)[3]

(٢) أراد أن يمهد لحكم الشام ، فشكا إلى السلطان من واليه عثمان بك ابن العظم ، وطلب عزله ، لأنه يؤوى بعض المصريين الذين نفاهم على بك ، ويعاونهم[4] .

(٣) جدّ فى التخلص من منافسيه بمصر بدهائه وقوته وصرامته[5] .

(٤) بعث حملة كبرى إلى الحجاز سنة ١٧٧٠ بقيادة محمد بك أبى الذهب ، فنجحت وصار شريف مكة موالياً له ، ونادى به على أنه (سلطان مصر وخاقان البحرين)[6]

(٥) بعد أن اطمأن إلى موالاة الحجاز مد نظره إلى الشام ، وكان صديقه الشيخ

---

(١) الجبرتى ١/٣٠٨ وتاريخ مصر الحديث ٢/٥٩ جرجى زيدان .

(٢) الجبرتي ١/٣٠٨ (٣) الجبرتي ١/٣٣٤

(٤) الجبرتي ١/٣٠٨ — ٣٠٩

(٥) الجبرتى ١/٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٣٨٠ وتاريخ مصر الحديث ٢/٥٥ — ٥٨ جرجى زيدان .

(٦) استنجد الشريف عبد الله بن حسين بعلى بك أول مرة سنة ١٧٦٩ م ١١٨٢ هـ (الجبرتي ٢/ ٣٥) وكان على بك مشغولا بالأمور فى مصر ، فأكرمه ووعده . واستنجد به ثانيا سنة ١٧٧٠م فلباه . وكان يريد بذلك أن يوسع ملكه ، ويكسب مجدا وسمعة ، ويستولى على جدة ليضمن السيطرة على الطريق التجارى فى البحر الأحمر بين الهند وأوروبا . وقد انتصر الجيش المصرى ، وولى الشريف عبد الله إمارة مكة (الجبرتى ١/٣٥٠ ، ٣٨١)

ظاهر العمر ثائرا على الدولة العثمانية بفلسطين ، فاتفق معه على إجلاء العثمانيين عن سوريا وفلسطين . وسير حملة لتعاونه بقيادة صديقه أبي الذهب سنة ١٧٧١ م ففتحها مدينة بعد أخرى ، حتى لقد شارفت جنود مصر أبواب حلب[١] ، ودانت له سوريا كلها .

وكان غرضه من هذه الحرب أن يوسع ملكه ، وأن يؤمن حدود مصر من الشرق حتى لا يهجم عليها العثمانيون المسيطرون على الشام .

وقد تجلى هذا الغرض منذ شكا إلى الدولة من والي الشام عثمان بك ابن العظم .

فلم تكن هذه الحرب تأثرا بإغراء ظاهر العمر الثائر بفلسطين ، ولا استجابة لإغراء الروسيا .

لكن علي بك لم يقنع بوصول الجيش المصري إلى حلب ، وتمادت به نشوة النصر ، فبعث إلى محمد بك أبي الذهب يأمره بأن يواصل زحفه إلى أن يستولي على مايشاء ، وأن يخترق الحدود ولا يثنيه عن الفتح عائق ، ويأمره بأن يولي الأمراء الذين معه على الولايات والبلاد التي فتحوها .

فعرض أبو الذهب عليهم ما أمر به علي بك ، فتكاشفوا جميعاً بأن نفوسهم قد ضاقت ، وأنهم سئموا الحرب والغربة ، وتعاهدوا مع أبي الذهب على العودة إلى مصر ، مخالفين أمر علي بك ، ومقسمين على أن يفي بعضهم لبعض .

والحق إن أبا الذهب انتقض على سيده لأسباب شتى ، فقد أغرته تركيا بالعفو وبولاية مصر ، وكان حاسدا لسيده حاقدا عليه ، وكان يخشى أن تنكل به تركيا إذا ما فرغت من حرب الروسيا ، وقد أرسلت إليه تركيا من نفّره من علي بك ، لأنه يتبع قيصرة روسيا عدو المسلمين ، ويستعين بها على الخليفة المسلم .

وبعد عودتهم صمم علي بك أن يعود أبو الذهب ليستأنف الفتح ، فصمم على الرفض ، وحينئذ انكشف الصراع .

فدبر علي بك مكيدة سنة ٧٧١ م (١٤ من شوال سنة ١١٨٥ هـ) لقتل أبي الذهب ، لكنه نجا وفر إلى الصعيد[٢] ، فكان من الحتم أن يتحاربا .

---

(١) الجبرتي ١/٣٦٥ (٢) الجبرتي ١/٣٦٤ — ٣٦٧

نشبت الحرب ، فهزم جيش على بك ، فخرج من مصر إلى الشام فى سنة ١٧٧٢ م (٢٥ من المحرم سنة ١١٨٦هـ) وفى اليوم التالى دخل محمد بك القاهرة ، وصار أميرها[١] . لكن على بك لم يستسلم ، فشخص إلى غزة ، وانضم إلى حليفه ظاهر العمر ، وحارب الأتراك وهزمهم فى يولية سنة ١٧٧٢م واستولى على فلسطين كلها .

وحينئذ مكر به أبو الذهب ، فأوعز إلى بعض ضباط الفرق أن يكتبوا إليه كتباً يشكون فيها من ظلم أبى الذهب ، ويطلبون منه أن يسرع بالعودة إلى مصر ليناصروه[٢] ، فاغتر بوعودهم ، وزحف على مصر سنة ١٧٧٣م (١١٨٧ هـ) بجنود من الشام ، ومعه أولاد صديقه ظاهر العمر .

فلعب أبو الذهب لعبته الثانية ، إذ أذاع فى أهل القاهرة أن على بك يوالى الكفار ، وأنه ميال إلى المسيحية ، وأنذرهم بأنه سيقدم إلى مصر بجيش من الروس ، يحتلون بلادهم ، ويستحلون نساءهم وأموالهم[٣] .

---

(١) الجبرتي ١/٣٧١ (٢) الجبرتي ٤/٤١٨ .

(٣) كانت تركيا قد اشتبكت فى حرب مع الروسيا . من سنة ١٧٦٨ إلى ١٧٧٤م وألبت الروسيا على تركيا ولايات البلقان ورومانيا وسواحل الايدرياتيك وغيرها . وكانت الأحوال مضطربة فى بلاد العرب والعراق وسوريا وفلسطين ومصر ، وقوات تركيا مضعضعة ، ونظمها الداخلية فاسدة ، فى هذه الأثناء هاجمتها الروسيا من كل ناحية براً وبحراً ، وانتصرت فى مواقع شتى فرأى على بك أن ينتهز هذه الفرصة ليستقل بمصر .

فطلب المساعدة الخارجية من ناحيتين .

(ا) قبل أن يسير حملته لمساعدة صديقه ظاهر العمر عرض على جمهورية البندقية أن تساعده بقوة بحرية ، على أن يساعدها فى امتلاك جزر الدولة العثمانية فى البحر ، وأن يفسح المجال لتجارتها فتزدهر كما كانت ، فردت شاكرة معتذرة .

(ب) كتب إلى قائد الأسطول الروسى الكونت ألكسيس أرلوف يعرض رغبته فى عقد معاهدة تحالف وصداقة مع الروسيا — وكانت فى حرب مع الدولة العثمانية ، وكان الأسطول الروسى يقوم بعمل هام فى البحر الأبيض المتوسط — على أن يمد الروس بالمعونة والمال ، وطلب منه مدافع ومهندسين ، فرد عليه أمير البحر مشجعا ومهنئا بحركته ، ووعده أن يرسل طلبه حالا لعرضه على الفيصرة . ولكن لم يتم شىء (على بك الكبير ١٦٠ محمد رفعت رمضان) .

فلما فر إلى الشام حين حربه مع أبى الذهب أرسل مرة ثانية إلى أمير الأسطول الروسى يخبره بما حدث ويطلب منه مددا من الجنود والمدافع والخبراء ، ليستعين بهم على العودة إلى مصر (على بك الكبير ١٨٥) .

ثم استنجد به مرة ثالثة حين زاره قائدان من الأسطول الروسى وهو مريض بالمعسكر قرب عكا (على بك الكبير ١٨٧) . وبعد ذلك مده أمير الأسطول بضابطين وثلاثة مدافع وسبعة بنادق وخمسمائة =

ولما اطمأن إلى ثقتهم بما يقول ، وجزعهم على مستقبلهم دعاهم إلى حمل السلاح ، ومهد للقاء على بك ، فالتقيا عند الصالحية ، فانتصر على بك أولا ثم انهزم ، وجرح ونقل أسيراً إلى أبي الذهب ، فقبل يديه وأكرمه ، ونقله إلى منزله بالقاهرة ، واستدعى الأطباء لعلاجه . لكنه توفى فى ٨ مايو سنة ١٧٧٣ م (١٥ صفر سنة ١١٨٧ هـ) .

هل استقل بمصر ؟

(١) لقد كانت عزيمة على بك منذ رأى أن يعزل الوالى التركى متجهة إلى الاستقلال بمصر ، وقد أسلفت تصريحه للملأ المجتمعين من الأمراء ، وحسبنا منه قوله : « واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها المماليك الذين كانوا سلاطين أشداء . . فأعيدوها إليهم ، وهذه فرصة فلا تضيعوها . . هلم إذاً نسعى إلى الاستقلال فإن فيه حياتنا وحريتنا[1] » .

والحق أن أمله فى الاستقلال لم يكن حلماً طارئاً ، بل كان أملا يجيش فى نفسه ويكتمل ، يدل على ذلك قول الجبرتى : « كان قوى المراس ، شديد الشكيمة ، عظيم الهمة ، لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى . . . . وكان يطالع كتب الأخبار والتواريخ وسير الملوك المصرية ، ويقول لبعض خاصته إن ملوك مصر كانوا مثلنا ، مماليك الأكراد مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم وكذلك ملوك الجراكسة ، وهم مماليك بنى قلاوون إلى آخرهم كانوا كذلك . وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها . وهو ينوه ويشير بمثل هذا القول إلى ما فى ضميره وسريرته[2] » .

فهو إذاً يطمح إلى أن تستقل مصر كما كانت مستقلة فى عهد أسلافه ، ويطمح إلى

= طلقة وثلاث جرارات للمدافع ، ووعده أن النجدة ستصل سريعا ، واشترك معه الضابطان فى حصار يافا (على بك الكبير ١٨٩) ثم تلقى ثلاثة مدافع أخرى حارب بها فى الشام .

ثم استنجد به مرة رابعة .

وساهمت قطع من الأسطول فى ضرب يافا من البحر ، وتمكن على بك وظاهر العمر من دخولها سنة ١٧٧٣

وبعد ذلك تعجل العودة إلى مصر قبل أن يصله المدد الموعود .

(١) الجبرتى ١/٣٠٨

(٢) الجبرتى ١/٣٨٠

أن تكون مصر دولة كبرى تضم ولايات عدة ، كما كانت فى عهد الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون .

(٢) ثم جاءت أعماله التى تحدثنا عنها تحقيقاً لهذا العزم . فقد عزل الوالى التركى ولم تستطع تركيا أن ترسل فى عهده والياً آخر[١] .

واستقل بشئون مصر استقلالا تاماً من سنة ١٧٦٩ إلى ١٧٧٣ م .

ولم يرسل الجزية السنوية إلى تركيا[٢] .

وفتح الحجاز بغير أن يستأذن السلطان العثمانى ، بل حارب العثمانيين أنفسهم بالشام مرتين .

وسعى إلى أن يعقد معاهدة تحالف مع جمهورية البندقية سنة ١٧٧٠ م ؛ وسعى أربع مرات ليعقد معاهدة مع الروسيا .

وهذه كلها مظاهر للاستقلال التام ، أو هى على أقل تقدير كما يقول المؤرخ شارل روز Charles-Roux تكافىء الاستقلال التام ، نتيجة للتطور الذى بدأ منذ عشرات السنين ، إذ شرع الأمراء المماليك يغتصبون شئون الحكم من الولاة ، والآن صار الاستقلال حقيقة واقعة[٣] .

لكنه لم يعلن هذا الاستقلال . فلماذا ؟

لقد يكون السبب فى ذلك أنه اكتفى بالاستقلال العملى ، فلم يجد حاجة إلى إعلانه ، لأن أعماله قد أعلنت هذا الاستقلال وأيدته . وقد يكون السبب أنه كان يعتزم أن يعلن هذا الاستقلال حينما يقضى على العثمانيين بالشام ، ويطمئن إلى أن حدود مصر الشرقية بمأمن من هجومهم .

وربما كان مبعث ذلك أنه شغل بحروبه عن إعلان هذا الاستقلال ، وكان ينوى أن يعلنه حينما تهدأ سيوفه فى الأغماد .

وما الذى يتعجله إلى إعلان الاستقلال ، وهو يجد الاستقلال حقيقة واقعة لا ريب فيها ؟ على أن الذى نستشفه أنه كان يريد الاستقلال التام ، لكن على ألا تنسلخ مصر من نطاق الخلافة الإسلامية . وهذا لا يضيرها ولا ينتقص من حقوقها ،

---

(١) الجبرتى ١/٣٨١ (٢) الجبرتى ٣/٢١٨

(٣) على بك الكبير . محمد رفعت رمضان .

لأن الخلافة الاسلامية رابطة دينية روحية ، ووشيجة قوية بين الدول والجماعات الإسلامية .

ولعل هذه الفكرة تتضح فى مظهرين :

الأول : أنه سك بعض نقود فى سنة ١٧٦٩ و ١٧٧١ م ، وكان على وجه منها اسم السلطان مصطفى الثالث ، وعلى الوجه الآخر أنها ضربت فى مصر بإذن على بك [١] على أن الجبرتى ذكر أنه سك نقوداً باسمه فى سنة ١٧٦٩ [٢] .

الثانى : أنه لم يلقب نفسه بسلطان مصر ، وإنما كان يلقب نفسه فى الأوراق الرسمية بقائمقام مصر . والمؤرخون جميعاً يسمونه على بك ، أو على بك الكبير ، أو الأمير على المصرى ، أو على بلوط قبان ، أوالجن [٣] . وقد عاقب خطيب المسجد الذى دعا له ، وقرن اسمه باسم السلطان العثمانى ، وأنكر على الخطيب أن يلقبه بالسلطان [٤] .

لمحة عن مسرحية (على بك الكبير) لشوقى

اتخذ شوقى الصراع الأخير بين على بك ومحمد أبى الذهب موضوعاً لمسرحية (على بك الكبير) . فصوره بطلا توا قاً إلى الاستقلال :

وأرجع حرّاً تحتَ النيلُ كلُّه ومامن بنى عثمانَ فوقى وال [٥]

وحاول أن يبرئه من الاستعانة بالروسيا ، يريد بذلك أن يبرر موقفه ، وأن يضفى عليه البطولة غير مشوبة بلوم . ولا تثريب على شوقى فى ذلك ، لأنه يقصد إلى غرض وطنى سام ، فمن حقه أن يلون التاريخ بفنه ، ولن يضار التاريخ بهذا التلوين ، لأن المسرحية ليست مصدراً وثيقاً من مصادر التاريخ .

تخيل شوقى أن على بك ناجى نفسه بعد ما عرض عليه القائد الروسى أن ينقله إلى مصر فى أسطوله ، ويساعده على استعادة الحكم ، فقال :

رباه ماذا يقول المسلمون غداً إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى
يقال فى مشرق الدنيا ومغربها فعلتُ فَعلة نذل وابن أنذال

---

(١) على بك الكبير ٦٢ محمد رفعت رمضان (٢) الجبرتى ٣/٢١٨
(٣) الجبرتى (٤) الجبرتى ١/٣٣٦
(٥) على بك الكبير ٣٩

ثم يقول للقائد :

أجَلْ سموت لملك النيـ ـ ـ ـل أطلبه بهمتى وبإقدامى وأفعـ ـ ـ ـالى
لا أستعين على الأهل الغريبَ ولا أرمى الذئاب على غابى وأشبالى
بُعداً وسُحقاً لعلياء الأمور إذا لم ألتمسها بخُلق فاضل عال [1]

المحاولة الثالثة

لما مات على بك عادت مصر ولاية عثمانية ، وخلصت مشيختها لأبى الذهب [2].

لكن أبا الذهب كان هو الحاكم الفعلى لمصر ، لأنه بعد انتصاره على مولاه حبس الوالى التركى بالقلعة ، وانفرد بالحكم . يقول الجبرتى : استهلت سنة ١١٨٨ هـ (م ١٧٧٣ م) ووالى مصر خليل باشا محجور عليه ، ليس له من الولاية إلا الاسم ، والعلامة على الأوراق ، والتصرف كله للأمير الكبير محمد بك أبى الذهب [3] .

ثم ظاهر أبو الذهب تركيا فى القضاء على الشيخ ظاهر العمر ، طماعية فى أن تترك له مصر ليستقل بها .

ولما أخضع مدن الشام واحدة إثر واحدة أرسل إلى إسلامبول يطلب إمارة مصر ، وبعث الهدايا والأموال مع رسوله ، فأجابته الدولة إلى ما طلب ، ووافاه النبأ يوم دخوله عكا ، فاشتد به الفرح إلى أن حُمّ ، ومات بعد ثلاثة أيام [4] فى ٨ يونية سنة ١٧٧٥ م (٨ ربيع الآخر سنة ١١٨٩ هـ) .

وبعد ذلك خسرت مصر ما كانت قد كسبته ، إذ تنازع إبراهيم بك ومراد بك وإسماعيل بك ، وصار إبراهيم شيخاً للبلد ، إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م

قيمة هذه المحاولات

لست أستبعد أن يصوّب إلى هذه المحاولات الاستقلالية تساؤل أو اعتراض ، لأن كثيرا من الدارسين قد أخذوا أنفسهم بالتدقيق فى كل شىء ، وباستكناه كل فكرة ،

---

(١) على بك الكبير ٨٣ — ٨٨
(٢) الجبرتي ١/٤١٨ (٣) الجبرتى ١/٣٧٧
(٤) الجبرتي ١/٤١٨ — ٤١٩

ولأننا قد بلغنا من الشعور القومى مبلغاً يضطرنا إلى التدقيق والاستكناه ، فصار من واجبنا ألا نأخذ الأمور بظواهرها البادية ، لأن الظواهر كثيراً ما تلوى عن الحق ، وتصرف عن الصواب .

(١) فقد يقال إن إبراهيم كتخدا وإسماعيل رضوان وعلى بك الكبير ومحمد أبى الذهب ليسوا مصريين ، وإنما هم مماليك طامعون فى الاستقلال بمصر .

ونحن لا ننكر أن هؤلاء أصلهم من المماليك ، لكننا لا ننسى أنهم تمصروا ، وعاشوا فى مصر أحقاباً طوالا أنستهم أوطانهم الأولى التى استجلبوا منها منذ عدة قرون ، فهم لا يعرفون لهم وطناً غير مصر .

وجدير بنا ألا ننسى حقيقة أخرى ، أن تركيا شغلت مدة من الزمن بحروب مع جيرانها ، فلم تمد حاميتها فى مصر بجنود جُدد ، فتمصر ضباطها وجنودها المقيمون بمصر ، واندمجوا بالشعب ، ولم تعد تربطهم بأوطانهم الأولى روابط .

ثم إن بعضهم كانوا يتوفّون ويتركون الجيش فيخلفهم فى مكانهم مصريون .

وإذا فيحق لنا أن نعتبر الجيش التركى بمصر جيشاً مصرياً يجمعه والمماليك غرض واحد ، ويأتم بآراء العلماء والزعماء من المصريين .

ولقد استقلت مصر فى عهد الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، ولم يكن ملوك هذه الدول المستقلة من المصريين .

ثم استقلت بعد ذلك منذ سنة ١٩٢٢ م ولم يقدح فى استقلالها أن أسرة محمد على تركية الأصل .

وإنا لنجد فى تاريخ الأمم أشباها لهذه الحال .

فبريطانيا ارتقى عرشها جورج الثالث سنة ١٧٦٠ م وهو جرمانى ؛ يجهل اللغة الإنجليزية . وإسبانيا حكمها ملوك من أسرة بربون الفرنسية ، وحكموا أيضاً صقلية وسردينيا .

والروسيا حكمتها كاترين الألمانية

(٢) وقد يقال إن هؤلاء أصحاب مطامع شخصية ، فهم يريدون الاستئثار بالنفوذ والحكم ، على أن مصر غنيمة لهم .

ولسنا نستطيع أن ندفع عنهم هذه التهمة ، لأنها تهمة يجوز أن تلصق بمن يتصدى لزعامة الشعب ، والدأب على نفعه وخيره .

فكل زعيم معرض لأن يتهم زوراً بأنه طامح أو طامع ، وكل حاكم يجاهد لنيل الاستقلال ، أولتوسيع النفوذ وبسط الرقعة ، وكسب مجال حيوى لشعبه ، عرضة لأن يقال عنه بالباطل إنه يسعى لكسب شخصى .

والذى نطمئن إليه أن هؤلاء المماليك كانوا يريدون بسعيهم إلى الاستقلال أن يكفلوا لأنفسهم أبهة الملك وعظم السلطان ، وأن يحققوا لمصر استقلالا يطلقها من قيود التبعية لتركيا ، فيعيش المصريون فى بلادهم أحراراً من التبعية للأتراك .

وجدير بنا ألا نطبق آراءنا ومثلنا فى هذا الوقت الذى نعيش فيه على أولئك الذين سبقونا بنحو مائتى عام . فقد كان الملوك والأمراء فى ذلك الوقت هم محور السياسة وقطب الشئون العامة فى كل بلاد العالم .

ولم تكن للشعوب فى ذلك الزمان قيمتها التى تستمتع بها الآن . على أن على بك الكبير لم يغفل الشعب ، ولم يهضم حقاً من حقوقه ، وهذا هو الذى حمل زوجته — التى تزوجها مراد بك فيما بعد — على أن تقول للمماليك الذين كانوا يزورونها : إياكم واغتصاب حقوق الشعب ، فإن زوجى كان دائماً يرعاها حق رعايتها . وهى صادقة فيما قالت ، لأنه دأب على الإصلاح ، وإقرار العدالة ، وكفالة الأمن ، وتشجيع العلوم إلى حدٍّ ما ، وحبس كثيراً من جهوده على خدمة الشعب فى وقت كانت فيه مرافق الشعب مهملة ، حتى لقد دهش الجميع من الحضارة التى بلغها ذلك الشعب فى مدة قصيرة (١) .

وطنية الشعب

لقد يقال إن الشعب المصرى لم يكن يتطلع إلى هذا الاستقلال ، لأنه لم يكن يفهمه . وعجيبٌ أن يوصف الشعب بأنه كان يعيش تابعا لتركيا ، ولا يفهم أن التبعية غير الاستقلال ، بل لا يفهم أنها تنافى الاستقلال .

---

(١) على بك الكبير ٢٠٩ محمد رفعت رمضان .

الحق أن الشعب كان يعلم أن التبعية صلة المسود بالسيد ، وأنه لم يكن راضيا عن سيادة تركيا ، إلا لأن صلتها بمصر صلة اسمية فى وصفها العام . وأن تركيا تمثل الخلافة الإسلامية ، وينضوى تحت لوائها كثير من الدول العربية ، فالإسلامية عوّض بعض العوض عن الوطنية .

وسنجد هذه الفكرة حية قوية فى مصر إلى أواخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين .

وكثيرا ما كان الشعب يشايع الأمراء المماليك ، ويرى فى انتصارهم انتصارا له . لذلك كان علماء الأزهر — وهم قادة الأمة فى ذلك الوقت — أعوانا للأمراء الذين يستحقون معونتهم وتأييدهم ، فهم يشيرون عليهم ، وينشرون الدعاوة لهم ، ويجمعون لهم المال ، ويساعدونهم على تنفيذ الخطط .

(١) فقد ثار الشعب على الظلم قبل أن يطمح على بك إلى الاستقلال بنحو قرن من الزمان ، وكان لزعمائه رأى مسموع يطيعه الأمراء .

ففى سنة ١٦٩٤ م (رجب سنة ١١٠٦ هـ) ثار الشعب والتجار والأعيان وتوجهوا إلى الأمراء يشكون من يوسف اليهودى — كان ملتزما بدار الضرب فى عهد الوالى المعزول على باشا — لأنه أدلى فى تركيا بمعلومات كاذبة عن مقدرة المصريين المالية ، والتزم بتحصيل مال زائد على المعتاد ، فلما عاد إلى مصر تلقاه اليهود بالترحاب ، ووافقه الوالى على تنفيذ الأوامر التى جاء بها ، وأعلن ذلك فى شوارع القاهرة . فلما شكا الشعب إلى الأمراء ركبوا هم والصناجق إلى القلعة ، وفاوضوا الوالى فأجابهم بما لا يرضيهم ، فقاموا عليه قومة واحدة ، وسألوه أن يسلمهم اليهودى ، فامتنع . فأغلظوا عليه وصمموا ، فأمرهم بوضعه فى العرقانة (السجن) حتى ينظروا فى أمره ، ففعلوا . لكن الجنود مضوا إلى السجن وأخرجوه وقتلوه ، وجمع الشعب حطبا أحرقه فى ناره . وقص الشيخ حسن البدرى هذا الحادث فى شعر [١] .

وبعد ذلك بعشرات السنوات ، وقبل مقدم الحملة الفرنسية عارض زعيم مصرى رغبة الأمراء فى إصرار وتحدٍّ ، فلم يستطيعوا خلافه . ذلك بأنه فى سنة ١٧٦٧م (١١٨١هـ) اتفق الأمراء على تجريد حملة إلى المنية لقتال على بك وصالح بك وأعوانهما ، فصاح

---

(١) الجبرتى ١/٢٧

الشيخ الحفناوى فى مجلسهم برفض ما يعتزمونه ، وأفحمهم بكلامه ، وقال : « خربتم الأقاليم والبلاد . فى أى شىء هذا الحال ؟ وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد على على بك ؟ هذا الرجل أخوكم . أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته ، واصطلحتم وأرحتم أنفسكم والناس ؟ » وحلف أنه لن يسافر أحد فى حملة مطلقا ، وإن فعلوا ذلك لايحصل لهم خير أبدا . فقالوا : إنه هو الذى يحرك الشر ، ويريد الانفراد بنفسه ومماليكه ، وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا ، وفعل مراده فينا . فقال لهم الشيخ : أنا أرسل إليه كتابا ، فلا تتحركوا بشىء حتى يأتى رده . فلم يسعهم إلا الامتثال ، فكتب له كتابا وبخه فيه وزجره ونصحه ووعظه .

لكن الشيخ لم يلبث بعد هذا المجلس إلا أياما ، ومرض ورمى بالدم وتوفى . وقيل إنهم سموه ليتمكنوا من أغراضهم »[١] .

كان الشيخ محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى قطب الرحى فى مصر ، لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه[٢] .

ولما ناضل على بك تركيا فرح الشعب بنضاله ، وحين انتصر بالشام سنة ١٧٧١ م (١١٨٥ هـ) . أقام الناس الزينات والأفراح ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وأولموا الولائم ، وصدحت الموسيقى ، وأطلقت المدافع ، « وعملوا شنكا وحراقات »[٣] .

وقد احتفلوا مثل هذا الاحتفال فى سنة ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) حين جاءتهم البشائر بانتصار أبى الذهب على ظاهر العمر ، وفتحه يافا ثم عكا ، وسقوط بلاد الشام فى يده[٤] .

(٣) لم يكن عجيبا إذاً أن يرهب الأمراء قوة الشعب ، ونفوذ زعمائه كما رأينا ، بل لقد كانوا يتجاوزون هذه الرهبة أحيانا إلى الزلفى والتصاغر . ففى سنة ١٧٨٥ م (١٢٠٠ هـ) وصل الوالى حسن باشا وأرسل لما نزل بالشعر عدة فرمانات إلى مشايخ البلاد يدعى فيها أن حملة تركية قادمة إلى مصر لعقاب مراد بك وإبراهيم بك ،

---

(١) الجبرتى ١/٢٥٧ (٢) الجبرتى ١/٣٨٩ — ٤٠٤
(٣) تاريخ الجبرتى ١/٣٦٥
(٤) الجبرتى ١/٤١٣

ولإصلاح ما فسد من شئون مصر . فلما عاد الأمراء اتفقوا على حربه ، واستعدوا للقائه وعزله . وخشى إبراهيم أن يثور عليهم الشعب ، فتزلف إلى زعمائه ، وذهب إلى الشيخ البكرى والشيخ العروسى والشيخ الدردير « وبكى وتصاغر فى نفسه جدا ، وأوصاهم بأن يحافظوا على الأمن ، ويكفوا الرعية عن الثورة فى مثل هذا الوقت ، لأنه كان يخاف ذلك جدا ، وخصوصا لما أشيع أمر الفرمانات التى أرسلها الباشا للمشايخ ، وتسامع بها الناس »[1] .

أرى أن فى هذه الأمثلة الكفاية ، للدلالة على أن الشعب المصرى لم يكن خانعا خاضعا سليب الإرادة ، وللدلالة على أنه كان قويا ذا تأثير فى السياسة العامة ، يرهبه الوالى تارة ، والأمراء تارة ، ويتزلف إليه الطامع فى السيطرة ، لأنه القوة القوية فى مصر .

وقد كان ذلك كله قبل أن تطأ أقدام الفرنسيين أرض الوطن .

(٤) وسنجد الشعب يهب بعد قليل فى وجه الجيش الفرنسى ليصده عن مصر ، ثم يثور عليه ليخرجه من مصر . وهذا لا يحدث من شعب مستكين لا يفرق بين الاستقلال والاحتلال . فلو أن المصريين كانوا فى غفلة عميقة عن حقوقهم وكرامتهم ، ولم يتنبهوا إلا حينما دوّت فى أسماعهم مدافع نابليون ، لكان من الطبيعى ألا تظهر آثار يقظتهم إلا بعد الحملة الفرنسية . لكن الذى حدث أنهم كانوا أيقاظا إلى وطنيتهم ، حراصاً على استقلال بلادهم وحمايتها من الغزو الأجنبى قبل أن تطأ أقدام الفرنسيين مصر ، وحين دخل الفرنسيون مصر ، وفى الزمن القصير الذى قضوه بها .

ذلك بأن المصريين ناصبوا نابليون — على قوته ودوىّ سمعته — العداء منذ توغل فى بلادهم ، بل قبل أن يجوس خلالها .

فقد ثار أهل الإسكندرية لما رأوا أسطول نلسون — قبيل مقدم أسطول نابليون — ظانين أنه الأسطول الفرنسى القادم لاحتلال مصر ، لأنهم كانوا يعلمون ذلك منذ احتل نابليون مالطة ، واستعدوا للمقاومة ، وحصّنوا القلاع ، وجيّشوا جيشاً ، وحملوا الأسلحة .

---

(١) الجبرتى ٢/١١١

ولما رسا الأسطول الفرنسي بالثغر هب السكان إلى سلاحهم ، ونصبوا مدافعهم على أسوار المدينة ، وناوش بعض فرسانهم قوات فرنسا ، ثم أطلقوا مدافعهم وبنادقهم ، وكافحوا القوات الفرنسية فى شوارع المدينة وأزقتها ، وقاوم السيد محمد كريم مقاومة الأبطال إلى أن يئس من النصر ، فسلم ، وتلقاه نابليون بحفاوة وتقدير ، وأبقاه حاكما على الإسكندرية [١] .

وفى هذه المقاومة كاد يقتل نابليون ، وأصيب الجنرال كليبر فى جبهته بطلق نارى ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور ، وجرح باسكال جرحاً غائراً فى ذراعه ، وقتل اللواء ماس وخمسة من الضباط .

يقول الجنرال منو : « لقد دافع الأعداء — يقصد الأهلين — عن المدينة بشجاعة فائقة وثبات عظيم » ثم هزم سكان البحيرة فرقة فرنسية يقودها الجنرال ديموى كانت تعتزم الطواف بالإقليم للاستطلاع ، وأرغموها على الارتداد إلى الإسكندرية .

ونهد مراد بك للقاء نابليون عند شبراخيت ، وأبلى جنوده بلاء مجيداً مشرفاً ، ثم هزموا ؛ لجهلهم بفنون القتال الحديثة . قال أحد ضباط الحملة : لو كان جيش المماليك مدرباً على فنون القتال الحديث ، ويقوده ضباط متعلمون لاستطاعوا أن يهزموا الجيش الفرنسى ، أو لأجبروه على التقهقر إلى الإسكندرية » [٢] .

وقد جمع المماليك قواهم للقاء نابليون عند إمبابة ، وجاهدوا ما استطاعوا لصده . وكان من الفدائيين الذين باعوا أنفسهم فى الدفاع عن القاهرة الأمير أيوب بك الدفتردار . كان قبيل المعركة يقول : أنا بعت نفسى فى سبيل الله . فلما التقى الجمعان توضأ ولبس سلاحه وصلى ركعتين وركب فى مماليكه وقال لهم : إنى نويت الجهاد فى سبيل الله . واقتحم صفوف الفرنسيين وألقى بنفسه فى نارهم واستشهد . وفى ذلك يقول الشيخ خليل المنير فى قصيدة يرثيه فيها ، وينوه ببطولته ، ويندد بفرار إبراهيم بك وغرقه فى النيل بعد هزيمته :

أمَّ الجهـــادَ شهيرَ السيف مجتهداً ... فى كلمة الحق إعـــلاء على الفَرَقِ

---

(١) الجبرتي ٢/٢ (٢) تاريخ الحركة القومية ١/٢٠٢١ الرافعى .

الله أكبر والتوحيد يصحبها نداؤه فى عجاج مظلم خنق
لقد تولى على عرض الصفوف إلى أن ضمه القلب فاستولى على الحلق
ما زال ينقضّ حتى انقضّ كوكبه وطار منه بهاء النور للأفق
مضى شهيداً وحيداً طاهراً سمحاً مغسّلا بدم الهيجاء لا غرق (١)

على أن المصريين قاوموا ببسالة فى مواطن عدة ، وانتصروا ، ثم انهزموا (بين الخانكة وأبى زعبل والصالحية وبلبيس) . وفى مجال المقاومة تبرز ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ . لقد كانت ثورة شعبية قوية يتزعمها علماء الشعب وكبراؤه ، ويشترك فيها سكان القاهرة وبعض المدن القريبة منها ، لكن الفرنسيين خشوا عواقبها فقمعوها بوحشية وغلظة . بيد أن لهيب الحماسة التى أُخمدت إلى حين طار إلى كثير من الأقاليم فى الوجه البحرى والوجه القبلى فثارت . ثم هاجت أقاليم شتى بعد ذلك سنة ١٧٩٩ م كالشرقية والبحيرة .

ولم تستكن القاهرة ، فثارت ثورتها الثانية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠م أيام كليبر ، وأدهش المصريون الفرنسيين ببسالتهم وأعمالهم ، على ما يعانون من نقص السلاح ، وجهد الفرنسيون فى إخماد هذه الثورة كما أخمدوا سابقتها (٢) .

وإذا كان نابليون قد جهد فى استمالة المصريين إليه ، تارة بادعائه الإسلام ، وطوراً بدعواه أنه جاء ليخلصهم من عسف الحكام ، وحيناً بإنشائه ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم والديوان العام سنة ١٧٩٨ ليشرك زعماءهم فى الحكم والإصلاح ، فإن ذلك كله لم يلههم عن معرة الاحتلال ، ولم يخفف من بغضتهم للفاتح المستعمر .

يقول المسيو مارتن martin أحد مهندسى الحملة وعضو لجنة العلوم بها : « لقد احتل الفرنسيون مصر ، ولكن لم يستقر لهم قرار فى البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعاً ، ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الأهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة ،

---

(١) الجبرتى ٢/٦٦
(٢) الجبرتى ٢/٣ — ٢٥ ، ٩١

ويقول : « إن دعاة الفتنة — يقصد الوطنيين — ما فتئوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء القطر المصرى ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا ، وهو أن مقاومة الاضطهاد أقدس واجبات الشعب » .

ويقول المسيو ريبو Reybaud : « لم يثق المصريون بحكامهم الفرنسيين ، ولم تغير المنشورات والكلمات المعسولة نفسية الشعب ، لذلك كان الوجه البحرى — على أنه انهزم — غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مرّ بها الجيش الفرنسى ، ورفعت علم الثورة »[1] .

نعم ، فإن المصريين الذين غلبوا فى كفاح نابليون لم تزايلهم عزتهم ، ولم ينسوا أن الفرنسيين أعداء لهم معتدون على وطنهم ، فقد ظل المتصلون منهم بنابليون — لأنهم أعضاء فى الديوان الذى أنشأه للمشاركة فى شئون الحكم — حانقين على فرنسا ، معتصمين بقوميتهم . يقول الجبرتى : إن نابليون دعا أعضاء الديوان فى ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (أول سبتمبر ١٧٩٨ م) إلى داره ، وأراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ، ووضع بيده الطيلسان على كتفى الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريماً له وتعظيما ، فرمى به الأرض مُحْنقاً غاضبا ، واستقال من الديوان ، ولم يقبل عضو من المصريين أن يلبس الطيلسان .

إذاً فلم تكن الحملة الفرنسية وحدها هى التى استفاق المصريون على دويّها فتطلعوا إلى الاستقلال ، وعرفوا معنى القومية والوطنية .

وإنما كانت الحملة الفرنسية ريحا هبت على النار المتقدة فأذكتها وأورتها .

(٥) ثم تجلت قوة الشعب فى صورة رائعة إذ اختار زعماؤه محمد على واليا عليهم .

ذلك بأنه منذ سبتمبر سنة ١٨٠١ م ، أخذت تصطرع فى مصر ثلاث قوى ، طموحا إلى الاستئثار بالحكم : الأتراك ، ولهم فى مصر جيش كبير — قدم فى آخر عهد الفرنسيين بمصر — والإنجليز ، ولهم جيش يحتل مواقع عدة كالإسكندرية

---

(١) تاريخ الحركة القومية ١/١٦٠ الرافعى .

ودمنهور ورشيد ، والمماليك حكام مصر قبل الفتح العثمانى ، وأمراؤها فى عهده الطويل ، وأصحاب النفوذ الحقيقى .

وفى الوقت الذى كانت تصطرع فيه هذه القوى كانت القوة الشعبية الغلابة تستجمع وتتحفز ، عازمة على ألا تدع مصر لدخيل .

فى هذه الفترة نجد الشعب يشتبك مرات كثيرة فى معارك مع جنود الدولة العثمانية ، وجنود بعض الأمراء من المماليك[١] . ونجده يثور على مظالم المماليك وكثرة ضرائبهم ، ونهبهم ما فى أيدى الناس . ويشكو إلى زعمائه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ، فيطلب هؤلاء من المماليك أن يكفوا عساكرهم عن العدوان ، فيعدهم المماليك ، لكنهم لا يفعلون شيئا ، فيثور الشعب وينضم إليه الزعماء والعلماء . وكانت ثورة شديدة ، فخاف العسكر منهم ، وتملقوهم بقولهم : إننا معكم ، أنتم الرعية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة . ثم انضم محمد على إلى الثوار فخشى المماليك وفروا إلى الصعيد ، وكان أولهم البرديسى ، وأبطلت الضريبة[٢] .

ونجد الوالى التركى أحمد باشا خورشيد يحاول أن يستعين بالشعب فى إضعاف محمد على وحسن باشا[٣] ، ثم نجد محمد على يتقرب إلى الشعب وإلى زعمائه .

وليس من شك فى أن محمد على مدين بتوليته للشعب ولزعمائه ، فإن القادة — مثل السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى والسيد أحمد المحروقى وهم مصريون — وآلافاً من الأهلين اتفقوا على تولية محمد على بشروط ، وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى الكُرْك والقفطان ، ونادوا فى الشعب بأنهم اختاروه والياً .

ولكن الوالى أحمد خورشيد رفض أن ينزل من القلعة بأمر الفلاحين ، وأعلن أنه لا ينزل إلا بأمر السلطان ، وشكا إلى القاضى من ضرر هذا العمل بمصر ، فرد

---

(١) الجبرتى ٣ فى مواضع كثيرة .

(٢) الجبرتى ٣ ومصر الحديثة . فولابل . وتاريخ الحركة القومية ٢/٣٥٢ — ٣٥٧ الرافعى

(٣) الجبرتى ٣/٣٢٧

عليه أن تشبثه هو الضار بمصر ، وقال له إن أربعين ألفاً من الأهالى جاءوا إلى داره مطالبين بعزل الوالى أو محاربته .

واستعد الشعب كله لتنفيذ رغبته بالقوة ، فحاصروا القلعة ، ورموها بالبنادق ، وكان الفقير يبيع ملابسه أو يستدين ويشترى سلاحا . وما زال الشعب يقاوم بقيادة السيد عمر مكرم حتى اضطر الوالى إلى النزول من القلعة ، وصعد إليها الوالى المنتخب[1] .

ولهذه البيعة دلالتها العظيمة ، فإن الشعب الممثل فى زعمائه اشترط أن يكون الحكم شورياً لا فردياً مطلقاً ، واشترط جلاء الجنود التركية لتكون مصر مستقلة ، وفى إلباس الزعماء لمحمد على الكرك والقفطان إشعار بأن الشعب هو الذى ولاه ، وأن الشعب مصدر السلطة .

ولقد فطن المؤرخون الإفرنج إلى ما فى ثورة سنة ١٨٠٥ م من معان سامية ، فنوهوا بها . قال تولابل فى كتابه مصر الحديثة : « لأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى الشرق بإرادة الشعب وباسم الشعب ، ولا جدال فى أن المطالب التى فرضها الزعماء تدل على ما بجيش فى صدورهم من الإحساس بالحرية ، وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة . وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت إلى محمد على أو أجمعت آراء الزعماء على تقليده سلطة الحكم فى ذلك الوقت ، فما ذلك إلا أن محمد على قد دعا إلى مبادى الحرية ، وأعلن فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ، ونادى بأن علة المحن راجعة إلى سوء الإدارة ، وعدم وجود الرقابة على الحكومة »[2] .

ولكن الحق أنه كان الأجدر بالزعماء المصريين أن يجمعوا على أحدهم ، ليكون والياً على بلاده وقومه ، بدلا من إجماعهم على وافد غريب . لكنهم انصرفوا عن أنفسهم ؛ لأن بوادر الشقاق كانت قد بدأت تدب فيما بينهم ، ولم يكن بدٌّ من صراع بعضهم لبعض ، فى الوقت الذى يحتل مصر فيه جيش تركى وجيش إنجليزى . ويظهر

---

(١) الجبرتى ٣/٣٢٧ — ٣٤٤

(٢) عصر محمد على للرافعى

أنهم خالوا سلامة الوطن فى أن يولوا بأنفسهم والياً عليهم من غيرهم يختارونه ، ويشترطون عليه .

(٦) وما زالت قوة الشعب مستعلنة فى السنوات الأولى من عهد محمد على ، فإن السيد عمر مكرم جهد مرات فى تذليل العقبات التى كانت تعترض طريق محمد على ، وأخمد ثورات ناشبة ومؤامرات خطيرة كانت ترمى إلى تنحيته .

وفى هذه الفترة أثبت الشعب يقظته وقوته مرة أخرى ، ذلك أن الإنجليز أرسلوا إلى مصر أسطولا ليساعد الألبانى ، وكان عدد جنودهم نحو ستة آلاف ، لكن المنية عاجلته قبل أن يتم نزولهم بمصر . فحاولوا أن يغرروا بالأهلين بوعود شتى ، فلم يفلحوا ، ونزلوا رشيد فهزمهم المصريون هزيمة ساحقة ، وأسروا كثيراً منهم ، وعرضوا الأسرى ورءوس القتلى فى القاهرة فى موكب كبير .

وخشى السيد عمر مكرم أن يثأر الإنجليز ، فنبه على الناس أن يتسلحوا ويتأهبوا للجهاد ، وأمر طلبة الأزهر ومدرسيه بتعطيل الدراسة . وقد استجاب له الشعب ، فتنادى الناس بالجهاد ، وكثر المتطوعون ، وأنفق القادرون على المتطوعين من الفقراء ، واستعد الشعب للمقاومة فى رشيد وفى القاهرة . فلما كرّ الإنجليز على الحمّاد هزمهم الشعب ، وقتل وأسر كثيرين ، وعرض الرءوس والأسرى بالقاهرة [1] .

كانت هذه الحرب بين الإنجليز والمصريين ميداناً للمقاومة الشعبية لا الحكومية .

فلما دانت الأمور لمحمد على أغرته نفسه بأن يتخلص من هذه القوة الرهيبة ، ونقم بعض الزعماء على السيد عمر مكرم ، أنه أثير عند محمد على ، وأنه الزعيم الرفيع المكانة فى الشعب ، فتملقوا الوالى ، ودسوا للسيد عمر مكرم ، وكانت ثمرة دسّهم أن نفاه إلى دمياط سنة ١٩٠٨ م ، فخفتَ صوت الشعب . ثم جاءت مذبحة القلعة سنة ١٨١١ م إرهاباً للأحرار ، ووأداً للشجاعة والتطلع إلى مراقبة الحكام .

استبد محمد على بالحكم ، ولما استتب له الأمر رنا إلى الاستقلال التام عن تركيا ، فقد أحس بضعفها وبقوته .

---

(١) الجبرتى ٤/٩ — ٥٣

وقد حاول محمد على أن يجمع العرب جميعاً فى قبضته ، وأن ينتزعهم من السيطرة العثمانية ، فى وقت تداعت فيه تركيا ، وأطلق عليها الأوروبيون (الرجل المريض) وتطلعوا إلى أن يرثوه حياً ، وقد ساعدوا اليونان على الانفصال ، وأعانوا الرومانيا الحديثة على الاستقلال ، وأغارت فرنسا على الجزائر فى شمالى إفريقية .

فلم يكن عجيبا أن يريد محمد على إنقاذ البلاد العربية المجاورة لمصر من مطامع الأوروبيين ، بأن يضمها إلى مصر ، لأن فتوحه دليل على التوسع ، وطمعه فى ضم ولايات إلى مصر يقتطعها من الخلافة .

« ومن الراجح الذى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم إليها البلاد العربية فى إفريقية وآسيا .

ففى إفريقية قد استقل بمصر ، وفتح السودان . وفى آسيا فتح معظم جزيرة العرب ، وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية . وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية الكبيرة على أنقاض الدولة التركية المتداعية .

ويؤيد هذه الفكرة رجحانا بعض أحاديث لإبراهيم باشا خلال الحرب السورية، فقد ذكر المسيو كادلفين وبارود فى كتابهما[1] أنه بينما كان الحصار مضروبا على عكا سئل إبراهيم باشا : إلى أى مدى تصل فتوحه إذا تم له النصر والاستيلاء على عكا ؟ فقال : إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى .

وقد قابله البارون (لبو الكونت) سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهية ، وجاء فى حديثه عن إبراهيم أنه ينوى إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم ، وإسناد المناصب إليهم .... وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ، ويشركهم فى إدارة الشئون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم .... وأنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمـــة العربية ومجدها التالد .... وهو فى صلاته بأهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربيا ، ولذلك لا ينفك يطعن فى الأتراك .

وقد سأله أحد جنوده : كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم ؟ فأجابه : أنا لست

---

(١) حرب مصر ضد الباب العالى فى سوريا والأناضول سنة ١٨٣١ — ١٨٣٣ كادليفين وبارود ٤١٢

تركيا ، فإنى جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين قد مصّرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته عربيا »[1] .

لكن إنجلترا وحلفاءها وقفوا لطموح محمد على بالمرصاد مدّعين الدفاع عن تركيا، فقد اعتزم أن يعلن استقلال مصر سنة ١٨٣٤ بعد الحرب السورية الأولى ، ثم فى سنة ١٨٣٨ ، فعارضته الدول فى المرتين . ثم تألبت عليه ، واضطرته فى سنة ١٨٤٠ إلى قبول معاهدة لندرة .

وبهذه المعاهدة عادت جيوش مصر من الشام ، وصارت مصر دولة مستقلة وراثية فى أسرة محمد على استقلالا شبه تام . ثم وثق إسماعيل هذه الوراثة ، ومضى قُدُما بهذا الاستقلال ، إلى أن جاء الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ م

---

(١) كتاب مهمة البارون لبو السكنت ٢٤٨ ، ٢٤٩ عن تاريخ الحركة القومية للرافعى ٣/٢٣٢

الفصل الثانى

ضحى الوطنية

عرفنا أن المصريين كانوا يشرئبون إلى الاستقلال بين الحين والحين ، فمن الإنصاف ألا نجحد جهودهم التى بذلوها ، وإن كانت بوادر لليقظة ، وبشائر للنهضة ، وفجراً لهذا الضحا الذى سنتحدث عنه .

وثمة عوامل فعالة فى نقلة الشعب من الفجر إلى الضحا ، وهى عوامل متشابكة ، كل منها نتيجة لغيره ، وسبب فى غيره ، وهى جميعها الضوء الوهاج الذى نقل الشعب من الغبش إلى وضح النهار .

البعوث العلمية

رفاعة الطهطاوى

عادت البعوث العلمية التى أوفدها محمد على ومن بعده ، تحمل إلى مصر تفكيراً جديداً ، وترسم لمستقبل الوطن صورة أرقى من صورته .

فلم يكن أولئك المبعوثون أوعية يُصَبُّ فيها العلم صبا ، ثم لا يعون غير العلم الصرف شيئا ، وإنما كانوا يدرسون ، ويتذوقون ما يدرسون ، ويفكرون فى حالة وطنهم وهم يدرسون . كانوا مصريين غُيُراً على وطنهم ، وكانوا أصحاب عيون تنظر ، وآذان تسمع ، وعقول تفكر .

وهم لا شك يرون فى فرنسا وغيرها حضارة لم يروها فى مصر ، ويعرفون من نظم أوربا وحريتها ما لم يعرفوا بمصر . فإذا ما عادوا إلى وطنهم ودُّوا له أن يَرْقَى ، وجَدُّوا فى أن يبدل بحاله خيراً منها .

وما زالت البعوث تشخص إلى أوربا فى عهود مختلفة ، وكل مبعوث يرى حالة أوروبا ، ويوازن بين حال مصر وما يرى ، فيعود إلى مصر طموحا إلى الإصلاح والتغيير . وكثير من المبعوثين عادوا فترجموا وألفوا وكتبوا ، فكانوا من عوامل الإنهاض والإيقاظ .

وحسبنا أن نضرب المثل بمبعوث قديم من عهد محمد على ، هو رفاعه الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣)

رأى رفاعه فى فرنسا نوابا يمثلون الشعب ، ويدافعون عن حرياته وحقوقه ، ولما عاد إلى مصر تحدث عن مجلس النواب معجبا[١] . وتحدث عن الملك وحقوقه وواجباته[٢] ، وتحدث عن الحرية وأنواعها ، وعن الحرية السياسية والمساواة[٣] ، وقد لخص الثورة الفرنسية ، واستهجن رأى الملك شارل العاشر فى مجافاته للدستور ، وفى جنوحه إلى الحكم المطلق ، وتضييقه على الأقلام الحرة[٤] .

وترجم الدستور الفرنسى ، فبصّر المصريين بحقوق الأمم الراقية ، ولم يقف قلمه عند الترجمة ، بل علق برأيه ، كقوله : من ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنسية هى قانون مقيد ، بحيث إن الحاكم هو الملك ، بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين »[٥] .

وكقوله تعقيباً على المادة الأولى من الدستور : « الفرنسيون سواسية أمام القانون » : سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر إلى هذه المادة الأولى ، فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم . . . . . »[٦] .

وعلق على المادة الخامسة عشرة باستحسان أن توزع السلطة على الملك ومجلس النواب ومجلس الأشراف[٧] .

---

(١) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ١٨٢

(٢) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ٣٤٨ — ٣٥٥

(٣) المرشد الأمين للبنات والبنين ١٢٧ — ١٣٠

(٤) تخليص الإبريز ١٧٢ (٥) المرجع السابق ٧٢ (٦) المرجع السابق ٨٠

(٧) المرجع السابق ٨٢

ونوه بالصحافة وأثرها فى تعليقه على المادة الثانية ، بأنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر مايخطر بباله . . . . ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئاً وكان من الأمور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة . وكذلك إذا كان الإنسان مظلوماً من إنسان كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم ، وتصل إلى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر »[١] .

وهذه الآراء التى كتبها رفاعة سنة ١٨٣٠ متسمة بالميل إلى الدستور وإلى الحرية والديمقراطية ، ولا تصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة ، والشعور بالحقوق القومية . ولو لم يكن رفاعة بك بمثل هذه الصفات لما صدر منه هذا القول . بل أغلب الظن أنه كان يضرب صفحا عما شاهده فى باريس من ثورة الشعب على الحكم الاستبدادى ، وما كانت هذه الثورة تترك فى نفسه من أثر سوى استنكار قيام الرعية على ولى الأمر »[٢] .

وتضمن مؤلفاته آراءه الجديدة الهادية ، ففى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) عنى بتعليم الفتاة وآدابها . ولم يكن فى مصر حينئذ مدرسة للبنات ، ولكن بعد طبع كتابه بعام أنشئت فى مصر سنة ١٨٧٣ أول مدرسة لتعليم البنات هى مدرسة (السيوفية) أنشأتها إحدى زوجات الخديو إسماعيل ، وأمتها مائتا تلميذة حين افتتاحها ، يتعلمن بالمجان ، ويأكلن ، ويلبسن .

وفى كتابه هذا مقالات وطنية ، كاعتزازه بمصر[٣] ، وواجب المصرى نحو وطنه ، كقوله : « فالوطنى المخلص فى حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع مايملك ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر ....»[٤] .

على أنه امتاز من الشعراء الذين عاصروه بعاطفته الوطنية ، فهو معتز بمصريته ، فخور بماضى مصر ، دءوب على استنهاض الهمم لاستعادة ماضيها المجيد .

---

(١) المرجع السابق (٢) عصر محمد على ٤٨٣ الرافعى
(٣) المرشد الأمين ٩٣ (٤) المرشد الأمين ٩٣

من ذلك أنه ألف أول نشيد وطنى عرفته مصر ، يبلو فيه نزوعه الوطنى كقوله :

فهيّا يا بنى الأوطان هيّا ... فوقتُ فخاركم لكمُ تهيّا
أقيموا الراية العظمى سويّا ... وشنوا غارة الهيجا مَليّا
عليكم بالسلام أيا أهالى ... ونَظْم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال ... فهمْ أعداؤكم فى كل حال
وجودهُمُ غداً فيكم جليّـــا

وله قصائد كثيرة يمزج فيها قليلا من المدح بكثير من الفخار بمجد مصر ، كهذه القصيدة التى طبعت سنة ١٢٧٢ هـ

وسأذكر مختارات منها ، لا لجودة أسلوبها ، أو طرافة خيالها ، أو حلاوة موسيقاها ، فإنها لا تتصف بشىء من هذا ، وإنما للنزعة الوطنية التى تتجلى فيها .

فهو يفخر بعراقة مجد مصر ، ويحض المصريين على حبها ، وعلى العمل لخيرها . وينوه بعظمتها القديمة ، ويتحدث عن رمسيس الثانى (سيزوستريس) وإنهاضه العلوم ، وفتحه الممالك .

ويباهى بفتوح مصر الحديثة ، وبسالة جنودها ، ويشيد بعزمات شيوخها وشبابها .

ولقد تكون هذه أول نغمة وقعتها يد على قيثارة الوطنية المصرية فى العصر الحديث .

بشرى لمصر سعدها بالعز لاح ... و (سعيدها) بالفوز ساعده الفَلاح
أبناء مصرٍ نحن موطننا أصيلْ
حسبٌ عريق زانه مجد أثيلْ
ونفارنا فى الكون جلّ عن المثيلْ
لرحابنا تُطْوى المهامهُ بالطِّلاح[1]

بشرى .....

---

(١) الطلاح : النوق المهزولة . المهامه : الصحارى

نحن السّراة وشأننا حب الوطنْ
ولشأننا السامى تزاحمَ من قَطَنْ
شانى حمانا ليس من أهل الفطنْ
فهو الدعىُّ وعِرْضه شرعا مباح[1]

بشرى .....

وطنٌ عزيز لا يهان ولا يُضامْ
ورحمًى تعزّز مِنْ عَلَى عليـاه حامْ
مجـــدٌ له لا زال يخترق الغَمامْ
عينُ السُّها لفخاره ذاتُ التماح[2]

بشرى .....

يا أهل مصرٍ بِرُّ مصرٍ فرضُ عَيْنْ
فى البِرِّ نبذل عن رضًا نفساً وعين
وإذا الرقيبُ رنا لها بلحاظ عَيْنْ
ما عندنا فى فقئها إلا الرماح

بشرى .....

فى كل قطر فى الممالك أو بَقِيعْ
أضواء مصر سَرَتْ لتنوير الجميعْ
تدبيرها فى بدئها سامٍ رفيعْ
فمليكها كأبى العِيال به الصلاح

بشرى .....

سيزوستريس لقد أقام شئونها
وهو الذى أعْطَى لها قانونها

(١) السراة : الأشراف الأمجاد . الفطن : الذكاء والإدراك .
(٢) حام : حارس وحافظ . التماح : نظر

قوّى معارفها وصاغ فنونها
ورموزه للعارفين بها صِحاح

بشرى .....

فتح الممالك مشرقاً أو مَغْربا
وأبانَ عن حُبِّ الفَخار وأعربا
دفعوا الخراج مُقرّراً ومُرتّبا
لمليك مصر على وِفاق الإقتراح

بشرى .....

ثم شرع يفتخر ببسالة الجنود المصرية فى العصر الحديث كقوله :

لما نزلنا كالسحائب والمطرْ
الجندُ هامَ وما تعاطَى بل عَقَرْ
وبفتكه بالضِّد قد بلغ الوطَرْ
حَزِنَ العدوُّ على خسارته وناح

بشرى .....

فصفوفُنا كلُّ الشجاعة جامعة
وسيوفنا عند الْعَجاجة لامعة
آذاننا لِنِدا الإغارة سامعة
بعزيمة عظمى تنادى : لا تَراح

بشرى .....

ثم خايل بشيوخ مصر وشبانها فى قوله :

وشيوخنا كم مارسوا يوما عصيبْ
وسلاحهم لا شك فى الأعدا مصيبْ

ومن الغنائم أحرزوا أوفى نصيبْ
خيرُ الليالى عندهم ليلُ الكِفاحْ

بشرى .....

شُبَّانُنا فى فضلهم مِثْلُ الشيوخْ
أقْدامهم وقت النِّزال لها رسوخ
شُمُّ الأنوف على السُّرَى لهمُ الشُّموخ
كم بدَّدُوا شَمْلَ الجموع بلا جناح

وله قصيدة فى وصف الجيش المصرى ، والمباهاة بعُدده وشجاعته ، منها :

نُنظِمُ جُنْدَنا نَظْما عجيباً يُعْجِزُ الفَهما
بأُسْدٍ تُرْعِبُ الخَصْما فمن يَقْوَى يناضلنا

إلى أن يقول :

مدافعنا القَضَا فيها وحُكْمُ الحَتْف فى فيها
وأَهْـــوَنُها وجافيها تجود به معاملنا
لنا فى المدُن تحصينُ وتنظيم وتحسين
وتأييدٌ وتمكين منيعاتٌ معاقلنـــا

وفى نشيد آخر دعا إلى التضحية فى خدمة الوطن ، وفدائه بالمال والدم والروح :

وعزيز الموطن نخدمه برضا فى النفس نُحَكِّمه
مالُ المصرى كذا دَمُهُ مبذول فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بِخَيْرِ ذخائرها
تُهْدَى فى نَيْل نظائرها بِشِرَا العَلْيـــا أعلى ثمن

obeikandl.com

obeikandl.com

وتقليص ظلها عن المسلمين ، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها »[1].

وقد جهر مراراً بكراهيته للإنجليز ، ونشر فى جريدة مصر فصولا ناطقة بذلك . ولم يغفل الإنجليز عن كراهيته لهم ، وخطره عليهم . فلما عظم شأن المحفل الماسونى الذى أنشأه داخل الخوف فنصل إنجلترا ، فوشى به إلى الحكومة المصرية وبث الرقباء فى المحفل ، فسعوا فيه فساداً [2] .

كان من وسائله لبث آرائه أن يلقى دروساً فى داره ، وفى خارج داره . وكان كثير من المصريين يتحلق حوله لينهلوا من علمه ، ويقتبسوا من روحه القوى الوثاب ، منهم محمد عبده وسعد زغلول ومحمود سامى البارودى وأديب إسحاق وعبد السلام المويلحى وإبراهيم المويلحى وإبراهيم اللقانى وعلى مظهر وسليم نقاش وأحمد الجداوى وأبو الوفا القونى ، وكثير من هؤلاء صاروا من القادة فيما بعد .

ولم يكتف بأن يبث فيهم الدعوة إلى تطهير العقول من الخرافات ، وفهم الدين على حقيقته ، والتطلع إلى الحرية والاستقلال ، بل أخذ يعدهم للعمل فيدربهم على الخطابة والكتابة فى موضوعات شتى ، ويشجعهم على نشر مقالاتهم فى الصحف ، ويحضهم على إنشاء الجرائد . فهو الذى حض تلميذه أديب إسحاق على إنشاء جريدة (مصر) بالقاهرة ثم جريدة (التجارة) بالإسكندرية ، وكان لها صوت مسموع وتأثير قوى ، فأغلقهما رياض . وشجع يعقوب صنوع على إنشاء مجلة فكهة اسمها (أبو نضارة) كانت تنتقد سياسة إسماعيل ، وساعد سليم عنحورى على إصدار (مرآة الشرق) .

وكان يكتب فى هذه الجرائد أحياناً باسم مستعار (مظهر بن وضاح) ويستكتب القادرين من تلاميذه ، مثل محمد عبده وإبراهيم اللقانى ، فاستل الكتاب أقلامهم ليكتبوا فى موضوعات تتصل بحياة الشعب ، وحقوقه ، وتوجيهه . من ذلك قول محمد عبده فى إيقاظ الوعى القومى : « إن الحاكم — وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته

---

(١) من مقال لمحمد عبده ، فى ترجمة جمال الدين . تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/٣٤

(٢) من مقال أديب إسحق فى ترجمته . تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤١

إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » . وقول أديب إسحاق فى الموازنة بين حال أوروبا والشرق : « قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب » .

وبذلك أنشأ كتاباً « لا يشق غبارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة . وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو حاكى المتصلين به »[1] .

إذاً نجح جمال الدين فى توجيه الأدب إلى صالح الشعب ، ونجح فى إيقاظ الغافلين ، ومشى باليَقْظى قدماً . يقول تلميذه محمد عبده فى وصف حال مصر قبل مقدمه : « إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧١م) كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن ينيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتبرون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده . . . . . وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى . . . . ولو حدّث إنسانا فكره السليم بأن هناك وجهة غير التى يوجهها إليه الحاكم لما أمكنه ، فإن بجانب كل نظر نفيا عن الوطن ، أو إزهاقا للروح ، أو تجريداً من المال »[2] .

ويذكر فى بيانه لأثر أستاذه فى طلابه أنهم « كانوا ينتقلون بما يكتبونه من معارفه أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد ، خصوصا فى القاهرة »[3] .

ولما أحس بأن مجال آرائه يجب أن يزداد اتساعا فيتخطى حلقات دروسه ومجامعه الخاصة انضم إلى المحفل الماسونى الأسكتلندى ، لأن فيه كثيراً من العلية مصريين وأجانب ، وهو يريد أن يذيع آراءه السياسية فيهم . لكنه ما كاد يستقر به حتى غلبته صراحته ، فلم يرُقه من المجمع تنحيه عن السياسة ، وفى ذلك يقول : « أول ما شوقنى للعمل فى (بناية الأحرار) عنوان كبير خطير : (حرية ، مساواة ، إخاء) وأن غرضها منفعة الإنسان ، والسعى لدك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق . وكنت

(١) مقال محمد عبده فى ترجمة جمال الدين . تاريخ الأستاذ الأمام محمد عبده ١/٣٢

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/٣٦

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/٣٧

أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجن يمكن أن يدخل من بين أسطوانتى المحفل الماسونى .

إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون — وفيها كل بنّاء حر — وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم القديم ، وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة » . ثم استقال منه وأنشأ محفلا آخر تابعاً للشرق الفرنسى ، وتوافد عليه الأعضاء حتى زادوا على ثلاثمائة من علية المصريين النابهين .

وكان من أعضاء هذا المحفل ولى العهد محمد توفيق[1] ، وكان يتظاهر بالميل إلى آراء جمال الدين ، وقد وعده بالدستور والحكم الصالح إذا ما تولى الحكم .

وهنا انفسح له المجال ، فأنشأ شعبا شتى لدراسة شئون مصر ، كل شعبة تدرس وتقترح وسائل الإصلاح ، وتبلغها للوزير المختص فى مشورة صريحة حازمة[2] .

وحينئذ عظم تدخله فى السياسة . يذكر تلميذه سليم عنحورى أنه تدخل فى السياسة جهرة سنة ١٨٧٨ ، وأنه كان يستثير العزائم بقوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ، ثم الفرنسيون والعلويون ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — الذى تجمع بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون .

فلو كان فى عروقكم دم فيه حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ، أو مأجورين شهداء » .

---

(١) من مقال أديب إسحاق . تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/٤١

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى محمد المخزومى باشا ٣٥ وتاريخ الأستاذ الإمام ١/٤١

فبدأ الناس يشكون من حكومتهم متململين ، ومنذ ذلك الحين طارت الثورة الأولى من شرارات الثورة العرابية [١].

ولما خشيت الحكومة المصرية والخديو صولة هذا المصلح الباحث أمرته بالرحيل من مصر خضوعاً لدسائس مستر فيفيان قنصل إنجلترا [٢]، فغادرها بعد ما تعهد نبت الحرية حتى اكتهل ، وبذر بذورها لتنبت نبتاً ينمو ويكتهل . نعم فإنه قد تعهد تلاميذه الذين كانوا فى حاجة إلى توجيه وقيادة مثل محمد عبده وسعد زغلول ، وتأثر به آخرون من الشادين فساروا فى القافلة . فبعد عن مصر بجسده لا بروحه وآرائه .

وحين نفى محمد عبده من مصر بعد الثورة العرابية استدعاه جمال الدين إلى باريس ، وأنشآهما وميرزا محمد باقر جريدة العروة الوثقى ، وظهر منها ثمانية عشر عدداً من ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ إلى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ . وكان من أهدافها تبصير الشرقيين بحقوقهم ، وبعث الأمل فى نفوسهم ، والدفاع عن الإسلام وعن الشرق ، واطلاع الشرقيين على ما يهمهم من أحداث العالم ، وتقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، ومناصرة الدول الغربية التى لا تحيف على الشرق ، ولا تعضد الحيف عليه ، والدعوة إلى الحكم الدستورى فى الدول الإسلامية ، وكانت تحرض العالم الإسلامى على الاحتلال البريطانى [٣]. لكن الاستعمار ضيق السبل عليها ، فاضطرت إلى الاحتجاب ، وإن لم يحتجب أثرها فى الإيقاظ والبعث .

لقد كان جمال الدين يؤمن بحق الشعب فى حكم نفسه ، لذلك لما استدعاه الخديو توفيق وقال له : « إنى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أراهم فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، لكن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح لأن يستمع إلى ما تلقونه عليه من الدروس والآراء المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » . أجابه جمال الدين بقوله : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم

---

(١) من مقال سليم عنحورى تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١/٤٧

(٢) مقال محمد عبده فى ترجمة جمال الدين . تاريخ الأستاذ الإمام ١/٣٣

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٣٣٢ — ٣٨٨

من العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب ينظر إليكم . وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم إلى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم كان ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم)[١] .

ثم خرج من قصر الخديو يخطب فى هذا الموضوع ، ويستثير تلاميذه ومريديه ليكتبوا فيه .

وطبق هذه العقيدة عملياً حين تميل النفس إلى التحلل من عقيدتها ، ذلك أن اللورد سالسبورى عرض عليه عرش السودان إبان الثورة المهدية ، فرفض قائلا : « هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها . . . . . »

ولما طلب منه شاه إيران أن يضع القانون الأساسى لمملكة فارس وضعه على أساس أنها مملكة دستورية ، ينتخب فيها الشعب حكامه . فلما اعترض عليه الشاه قال له : « إن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأثبت مما هى الآن[٢] » .

رحم الله جمال الدين ، لقد كان كما قال فيه براون وجولدزيهر : « فيلسوفا كاتبا خطيباً صحفيا سياسيا . وكان له أثر بالغ فى النزعات الشورية التى حدثت فى عشرات السنين الأخيرة فى الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية[٣] » .

وسنرى فى وطنية شوقى أنه متصل ببعض تلاميذ الأفغانى ، ومتأثر بهم . وسنعرف أن دعوة الأفغانى كان لها أثر عظيم فى الوعى الوطنى العام الذى عاش شوقى فيه .

---

(١) خاطرات جمال الدين ٨٩ محمد المخزومى باشا
(٢) جمال الدين الأفغاني ٣٢ قدرى حافظ طوقان
(٣) زعماء الإصلاح ١٠٦ أحمد أمين

الصحافة

١ — كانت مصر أسبق بلاد الشرق إلى معرفة الطباعة والصحافة ، لأن نابليون أصدر بمصر صحيفتين ، إحداهما إخبارية لضباطه وجنوده ، تطلعهم على أنباء أوروبا ومصر ، والأخرى علمية لشئون مصر التاريخية والاجتماعية والاقتصادية . والصحيفتان معاً باللغة الفرنسية .

على أن الفرنسيين حاولوا فى الأيام الأخيرة أن يصدروا جريدة باللغة العربية ، وأعدوا العدة لها ، لكن هذه المحاولة لم تتحقق .

وفى سنة ١٨٢٢ كان لمحمد على جريدة يومية يصح أن نسميها (جريدة الوالى) يُطبع منها مائة نسخة باللغة العربية والتركية ، توزع على كبراء الدولة ، تنشر أخبار الأقاليم ، وأعمال الدواوين[١] ، وهى النواة التى نبتت منها جريدة الوقائع سنة ١٨٢٨ وفى سنة ١٨٣٣ أنشأ جريدة للجيش سميت (الجريدة العسكرية)[٢] .

ثم تنوعت الصحف الرسمية فى عهد إسماعيل ، مثل يعسوب الطب سنة ١٨٦٥ أقدم الصحف الطبية فى الشرق كله ، والحكومة تشرف عليها وتمدها بالمال ، والجريدة العسكرية المصرية سنة ١٨٦٥ ، وجريدة أركان حرب الجيش ، ومجلة روضة المدارس[٣] سنة ١٨٧٠ وهى علمية أدبية يشرف عليها رفاعة الطهطاوى وعبد الله فكرى وعلى مبارك .

٢ — أما الصحافة الأهلية — باللغة العربية — فقد كان مولدها سنة ١٨٥٥ م[٤]

---

(١) تطور الصحافة المصرية . إبراهيم عبده ٢٥ — ٢٩ (٢) المرجع السابق ٣٦

(٣) المرجع السابق ٤٧ — ٥١

(٤) أصدر رزق الله حسون الحلبى (مرآة الأحوال) ، وخليل الخورى (حديقة الأخبار) سنة ١٨٥٨ م بسوريا ، وأحمد فارس الشدياق (الجوائب) سنة ١٨٦٠ م بالاستانة .

ثم أوعز الخديو لإسماعيل إلى عبد الله أبي السعود ناظر المدرسة الكلية التى أنشأها محمد على أن ينشىء (وادى النيل) سنة ١٨٦٦ م لتكون لسان الخديو .

ثم صدرت (مجلة نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لعثمان جلال وإبراهيم المويلحى . و (مصباح الشرق) لإبراهيم المويلحى وابنه محمد سنة ١٨٦٩ م .

ثم أصدر محمد أنسى بن عبد الله أبي السعود جريدة (روضة الأخبار) سنة ١٨٧٥ م فى القاهرة وصدرت (الأهرام) لسليم نقلا فى سنة ١٨٧٥ ، وكان هدفها الدفاع عن فرنسا .

وبعد ذلك أوحى الأفغاني إلى يعقوب صنوع أن يصدر (أبو نضارة) سنة ١٨٧٧م تحمل على =

أثر الصحف فى الوطنية

يعنينا من تأثير الصحف أنها غذت الوعى الوطنى ، وألهبت المشاعر ، ونبهت إلى الأخطار ، وأثارت الرى العام .

١ — حتى الجرائد الرسمية كانت تساهم فى البحث ، فجريدة الوقائع تنتقد الحكومة

= الخديو والاحتلال . وأوعز إلى أديب إسحاق أن يصدر (مصر) سنة ١٨٧٧ م و (التجارة) ، وهدفهما معاً الدعوة إلى دولة عربية كبرى . وكذلك شجع جمال الدين على إنشاء جريدة (مرآة الشرق) لسليم عنحورى ، وكتب فيها مقالات عدة ، وكانت وطنية تناهض الاحتلال ، ثم تولاها إبراهيم اللقانى .

وفى سنة ١٨٧٣ م صدرت (الكوكب الشرقى) لسليم حموى ، وفى سنة ١٨٧٧ م صدرت (الوطن) لخالى عبد السيد ، وفى سنة ١٨٨٠ م صدرت (المحروسة) .

ثم أنشأ عبد الله نديم جريدة (التنكيت والتبكيت) سنة ١٨٨١ نقد فيها من يترامون على الغرب وينسون شرقيتهم ولغتهم ، ونقد بحالة مصر وسوء الحكم فيها . ثم أنشأ (الطائف) نقد فيها سياسة الخديو إسماعيل فى صراحة ، وكانت لسان الثورة العرابية تدعو لها وتمجد قادتها ، وتذم الخديو توفيق .

وظهرت (الحجاز) تحمل على الأجانب و (المفيد) لحسن باشا الشمسى ، تدعو إلى الحرية والإصلاح ، وتناصر العرابيين ، وتتحدث عن ذل المصريين ، وبؤس الفلاح (السيد فى صورة العبد ، ورب الدار فى موقف الخادم)(١) .

وظهرت (البرهان) سنة ١٨٨١ م لعوض فريد ويحررها حمزة فتح الله ، ومهمتها الدفاع عن الخديو توفيق ، ومناصرة الحكم المطلق بجهرة (٢) .

وصدرت (المقطم) سنة ١٨٨٨ م لمناصرة الإنجليز والاحتلال . و (المؤيد) سنة ١٨٨٩ م للشيخ على يوسف للدفاع عن الخديو ومناهضة الاحتلال . و (الأستاذ) لعبد الله نديم سنة ١٨٩٢ لمهاجمة الاحتلال والدعوة إلى الاصلاح . وبلغ من نفوذها وذيوعها ، أن الصحف الانجليزية انبرت للرد عليها ، وحملت على صاحبها ، وحذرت من أن تشعل ثورة كالثورة العرابية . وفى المؤيد يقول حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٦ إذ أظهرها على يوسف فى ثوب جديد .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة ... أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحت مصلى للبلاغة عندما ... سجدت برحب فنائها الأقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية ... وعلى مؤيدك القديم سلام(٣)

ثم فى سنة ١٩٠٠ صدرت (اللواء) ثم (العلم) ثم (الشعب) معبرة عن آراء الحزب الوطنى .

ثم صدرت (الجريدة) لأحمد لطفى السيد تدافع عن مصالح مصر فى اتزان واعتدال ، وكانت لسان حزب الأمة ...

وتوالت الصحف بعد ذلك كالبلاغ وكوكب الشرق والسياسة والجهاد .

---

(١) المفيد ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، ٢٣ يناير سنة ١٨٨٢ وتطور الصحافة المصرية ١٢٢ .
(٢) البرهان ٢٦ مايو وأول ديسمبر ١٨٨١ .
(٣) ديوان حافظ ١/١٥٠

ورجال الدولة نقداً لاذعاً قبيل الثورة العرابية [١] ، كما تدافع عن الحكومة ، وتعدد مآثرها وأنواع إصلاحها ، وتدحض ما يراه الأجانب من مساوىء فى سياستها ، كما حدث يوم تولى رفاعة الطهطاوى تحرير الوقائع قبيل أن تفرض على مصر معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ . وفى عهد إسماعيل سلكت الوقائع المسلك نفسه ، وهاجمت خصوم مصر .

وظلت الوقائع الرائد الأول للمفكرين وحملة الأقلام من طلاب البعثات ، ومن غيرهم ، وكانت تفتح صدرها لمقالات ينشرها أناس من الشعب [٢] .

ولها ولغيرها من صحف رسمية (الجريدة العسكرية) و (جريدة أركان حرب الجيش) أثر عظيم فى إيقاظ الشعب ، وبث الثقة فى نفسه . وقد تخرج فى (الوقائع) كثير من القادة فيما بعد كرفاعة الطهطاوى ، وعثمان جلال ، وأبى السعود ، ومحمد عبده . ولما أشرف محمد عبده على تحريرها ضم إليه سعد زغلول وإبراهيم الهلباوى وغيرهما ، فألحقوا بها قسما غير رسمى يكتبون فيه مقالات اجتماعية وإصلاحية .

٢ — استغلت الصحف الأهلية الحرب بين تركيا وروسيا ، فنشرت أنباء المعارك ومقالات فى أحوال الدولة وسياستها . وكادت جريدة (الوطن) و (مصر) تقفان جهودهما على أنباء الحرب .

فجريدة (الوطن) كان تحمل على تركيا ، وتنادى باستحقاق الشعوب الخاضعة لتركيا للحرية والدستور ، وتعتبر جريدة الوطن سجلا دقيقاً لأطوار الحرب الروسية والمعاهدات التى تمت فى نهايتها .

أما جريدة (مصر) فقد كانت إلى جانب السلطان العثمانى ، تحزن لانكسار جيوشه .

وانتهزت (الأهرام) فرصة الحرية التى أباحتها الحكومة ، فنشرت مقالات عنيفة عن الحكم المطلق وجرائره والظلم وآثاره [٣] .

يقول الشيخ محمد عبده : « لما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا سنة ١٨٨٧ وجد الناس من نفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة

(١) تطور الصحافة ٥٦ لإبراهيم عبده (٢) المرجع السابق ٥٤
(٣) تطور الصحافة المصرية ٧٦

العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا، فتطلعوا إلى مايرد من أخبار الحرب، وسهلت كثرة الأجانب في مصر ورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها من الأوروبيين، ومهدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق إلى العلم. وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية، فانطلقت إلى إيراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل إلى إطراء ماكانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ماكان ينسب إلى الجنود العثمانية. فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها.

وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل. ولم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والمعاشية، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية، وأخذ جمال الدين يحمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير وإنشاء الفصول... وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة تخيل للناظر أنه في عالم خيال، ومن يطلع على أعداد جريدة مصر والتجارة ومرآة الشرق والأهرام وصدى الأهرام يرى حقيقة ما ذكرنا»[1].

٣ — مهدت الصحف للثورة العرابية، فكانت كالريح التي تهب على وميض النار خَلَلَ الرماد، ثم ناصر أكثرها هذه الثورة، مثل (الطائف) و(الحجاز) و(المفيد)

٤ — دعت الصحف صراحة إلى الدستور وإلى مجلس النواب، لتكون الوزارة مسئولة أمامه.

فلما انعقد استبشرت به، وجهرت بنقد الحكومة، وحملت على ريفرز ولسن.

على أن وزارة نوبار شجعت الصحافة من حيث لاتريد، لأنها أساءت إلى الضباط من المصريين، ورضيت أن يكون بها وزيران أجنبيان، فقرب الخديو الصحف إليه، لتسنده، وترد عنه هجمات الدول.

فلما فض رياض باشا مجلس النواب، حملت عليه وأشادت بأعضاء المجلس الذين انعقدوا في جمعية عمومية في غير دار المجلس.

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٣٨٠

٥ — فلما مُنيت مصر بالاحتلال البريطاني بعد الثورة العرابية ، أُغلقت صحف ، وضيق على الباقي ، وجدّت صحف . وتزعمت (الأهرام) الحركة الوطنية منذ سنة ١٨٨٤ وحملت على السياسة الإنجليزية بمصر ، وهي في حملتها هذه موالية لفرنسا ، مخلصة للدولة العثمانية ولمصر . وخصصت حجرة لمصطفى كامل وأنصاره ، وفسحت صدرها لمقالاته سنة ١٨٩٥ [١] .

ولم يجد لورد كرومر بُدًّا من أن تكون له في مصر صحيفة تدافع عنه وتناصره ، فأنشئت (المقطم) سنة ١٨٨٨ . وكانت تدافع عنه وعن أصدقاء إنجلترا من المصريين ، وتحمل على تركيا والسلطان ، فأحس المصريون بحاجتهم إلى جريدة مصرية تستمد قوتها من الشعب لا من قنصل فرنسا ولا من المعتمد البريطاني ، فكانت (المؤيد) سنة ١٨٨٩ للشيخ علي يوسف ، وكتب فيها مصطفى كامل متطوعا . وظهرت (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ لعبد الله نديم . ثم (اللواء) سنة ١٩٠٠ وهي لسان الحزب الوطني . فلما احتجبت اللواء ظهرت (العلم) .

والصبغة العامة للمؤيد واللواء والأستاذ مناصرة الوطنيين ، والدفاع عن الإسلام ، والدعوة إلى اتحاد المسلمين جميعاً في ظلال الخلافة العثمانية .

والصبغة العامة لجريدة (البرهان) و (الوطن) و (الاعتدال) مناصرة الخديو توفيق على الثورة العرابية [٢] .

وكانت (الجريدة) لأحمد لطفي السيد تدافع عن صوالح مصر لا تركيا . ونستطيع أن نقرر أن الكثرة الغالبة من هذه الصحف ومما جدّ بعدها كانت تعارض الاحتلال البريطاني منذ نكبت به مصر إلى اليوم ، حتى إن (اللواء) لم تجبن عن لوم الخديو عباس لما رأته يمالىء الإنجليز ، ويهادنهم .

٦ — على أن لهذه الصحف محمدة جديدة بالذكر . فقد كانت — بعد إخفاق الثورة العرابية — توحي إلى المصريين بأن يستردوا ثقتهم بأنفسهم ، وتعلمهم أن الهزيمة لا تقعدهم عن السعي إلى الاستقلال ، وترد على الإنجليز الذين يمنون على مصر

---

(١) تطور الصحافة المصرية ١٤٨ — ١٤٩

(٢) مذكرات عرابي ١/٢٠٦

بعض إصلاحهم بأن هذا بعض حقوق المصريين التي يجب أن ترد إليهم .

ونجحت فى تكسير الحواجز التى كانت تحول بين الحاكم والنقد . ذلك بأن الخديو إسماعيل شجع الصحافة أولا ، ثم جدت ظروف اضطرته إلى أن يقاوم بعض الصحف المصرية ، فثارت عليه .

ثارت عليه الصحف المصرية التى تحتمى بقنصلية أجنبية (الأهرام تحتمى بقنصل فرنسا . أبو نضارة تحتمى بقنصل إيطاليا) ، كما ثارت عليه الصحف الإفرنجية الصادرة فى مصر ، ثم جاهرت صحف شتى بنقد توفيق وعباس .

٧ — ثم جاهدت الصحف جهاداً مجيداً فى ثورة ١٩١٩ وما بعدها . وكانت المنبر العام الذى يتصل منه الزعماء والقادة والمفكرون بالشعب يغذونه بالآراء ، وينيرون له سبيل الجهاد . وكانت تطلع الشعب على أسرار السياسة وعلى الأحداث التى تتوالى فى الخفاء . وكثيراً ماتشرفها شعراء الوطنية قصائدهم الملهبة للعاطفة الوطنية والدينية ، وفى الصدارة شوقى وحافظ . وإلى ذلك يشير شوقى فى قصيدته (شهيد الحق) فيخاطب مصطفى كامل بقوله :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلا ... سهرنا عن معلمهم وناما
مهارُ الحق بغّضنا إليهم ... شكيم القيصرية واللجاما
(لواؤك) كان يسقيهم بجام ... وكان الشعر بين يدىّ جاما
من الوطنية استبقوا رحيقا ... فَضَضْنا عن معتّقها الختاما
غرسنا كرمها فزكا أصولا ... بكل قرارة وزكا مُداما[1]

ويقول فى رثائه :

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى
وتُجِل فوق النيرات مكانى[2]

٨ — ولم يكن قانون المطبوعات الذى صدر فى أول عهد الاحتلال (٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١) ينفذ بشدة فى عهد كرومر أى منذ سنة ١٨٩٤ ، لأن هذا الرجل كان بعيد

---

(١) الشوقيات ١/٢٧٧ (٢) الشوقيات ٣/١٧٠

النظر ، يجد فى تكميم الصحف تأريثاً للوطنية ، وإشعالا للحقد على بريطانيا . فلما ارتحل من مصر شهر خلفه سلاح هذا القانون « ففى أوائل سنة ١٩٠٩ ، أعيد قانون المطبوعات ونفذ برفق كثير ، وربما بولغ فى تنفيذه ، فأنذرت جريدتان عربيتان وألغيت ثالثة ، وحكم على محررها بالسجن اثنى عشر شهراً ، وحكم أيضاً على الشيخ جاويش محرر اللواء بالسجن ثلاثة أشهر . . . لكن هذه الإنذارات لم تفلح فى منع الصحف الوطنية المتطرفة من المثابرة على نشر المثالب والمطاعن فى ولاة الأمور والازدراء بهم . . . . فلم يكن بد من تنفيذ قانون المطبوعات بشدة أكثر من قبل »[1] .

والحق أن التطرف والمثالب والمطاعن ـ كما يزعم السير غورست ـ لم تكن إلا دفاعا عن مصر ، ونقداً لسوء أحوالها ، وتنديداً ببعض أبنائها الذين يمالئون الاستعمار ويهادنونه .

لذلك طبق قانون المطبوعات على الصحف المعارضة خاصة ، وبسببه سجن الشيخ عبد العزيز جاويش لأنه كتب فى (اللواء) مقالا عن ذكرى دنشواى[2] ، عرض فيه برئيس الحكومة بطرس غالى .

لذلك جزع حافظ إبراهيم من هذا القانون الذى صدر فى وزارة بطرس غالى باشا سنة ١٩٠٩ ، فقيد حرية الرأى والكتابة فى الصحف ، فقال :

كانت تواسينا على آلامنا ... صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعونا الدمع فاستعصى بكت ... عنا أسًى حتى تغصّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهماً ... نَرْمِى بها وسوابقاً يوم اللقا
كم نفّسْت عن صدر حُر واجد ... لولا الصِّمام من الأسى لتمزّقا
مالى أنوح على الصحافة عاجزاً ... ماذا ألمّ بها وماذا أحدقا ؟
قَصُّوا حواشيها وظنوا أنهم ... أمِنُوا صواعقها فكانت أصْعقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما ... يَثْنى عزائمها فكانت أحذقا[3]

---

(١) تقرير غورست عن مصر سنة ١٩٠٩ صفحة ٥ (٢) اللواء ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٩
(٣) الديوان ٢/٦٠ السوابق : الخيل السريعة . حاذقهم : بطرس غالى رئيس النظار .

٩ — الفكرة الشائعة أن الشاميين سبقوا المصريين إلى إنشاء الصحف بمصر . وهى فكرة تعوزها الدقة ، لأنه فى عهد الخديو إسماعيل كانت فى مصر صحيفتان مصريتان قبل أن تولد صحيفة شامية . إذ أنشأ أبو السعود جريدة (وادى النيل) سنة ١٨٦٦ لتأييد الخديو إسماعيل ، وأنشأ عثمان جلال وإبراهيم المويلحى جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ وهى حرة ناقدة فعطلت .

على أن الشاميين أصدروا صحفهم بمصر ، لأنهم اطمأنوا بها إلى حرية الرأى التى كانت محظورة بتركيا والشام ، ولأنهم وجدوا مصر أرقى ثقافة وأكثر ملاءمة لنشر الصحف ، وقد كان الخديو إسماعيل فى حاجة إلى صحف تؤيده فى مسعاه لإنشاء المحاكم المختلطة ، فشجع الشاميين على إصدار صحف بمصر ، ثم إن الكتاب المصريين والكتاب الوافدين على مصر آزروا هذه الصحف بمقالاتهم ، كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وكانت الأحوال السياسية والمالية فى مصر غذاء للأقلام ومددا للكتاب .

١٠ — وكانت لشوقى صلة وثيقة بجريدة (اللواء) كما سبق .

وكان ينشر بعض قصائده فى غيرها كالأهرام . على أنه كان يقرأ صحف عصره ويعرف منها أنباء مصر والعالم ، وقد ظهر أثر هذا فى كثير من شعره . وسنعرف أنه ردد فى قصائده فى (عرابى) كثيرا من المعانى التى نشرتها جريدة (اللواء) فى الحملة على عرابى ، وفى وصف مقدمه إلى مصر .

الثورة العرابية

أسبابها

قبيل أن تلتهب ثورة المصريين بزعامة أحمد عرابى كان وعيهم قد نضج ، استجابة للعوامل السابقة ، ونتيجة لانتشار التعليم ، وثمرة للنهضة الأدبية فى الكتابة والخطابة والشعر ، وضيقا بالامتيازات الأجنبية .

(١) نعم فقد ناء المصريون بالامتيازات زمنا طويلا [1] ، والعجب من هذه

---

(١) بدأت الامتيازات منحة من الحكومات الشرقية للأوروبيين الراغبين فى الرحيل لزيارة القدس أو الإقامة به فى عهد الحروب الصليبية ، ثم توسع فيها السلطان سليمان القانونى ومن بعده ليشجعوا التجار على الإقامة فى تركيا والبلاد الخاضعة لها .

الطاقة التى احتملت مظالم الدخلاء الذين يحتمون بالامتيازات فى البلاد العربية . ولو أن هؤلاء الأفاقين كانوا على قسط من العدالة أو المجاملة للمصريين لهان الخطب ، لكنهم طغوا وبغوا ونظروا إلى المصريين على أنهم الغرباء الأذلاء المستباح ذمارهم ، فيبتزون أموالهم ويستلبون حقوقهم ، ويستذلونهم فى ديارهم ، وهم آمنون من القصاص العادل ، واثقون أن الحكومة المصرية لا تستطيع لهم ضراً ، وحسبنا أن الإنجليز أنفسهم جاهروا بمساوىء الامتيازات وأضرارها .

قال لورد كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) إن هذه العهود — عهود الامتيازات قد تحولت إلى أغراض خسيسة ، من أمثلتها أن تحمى جهنم القمار كما تحمى بائع الخمور المغشوشة ، وبائع السلع المسروقة ، والصيدلى الذى يبلغ به التهاون أن يعطى السم القاتل بدلا من الدواء الموصوف [١] .

واعترف بآثارها السيئة فى مصر وتعويقها كثيراً من ضروب الإصلاح السير إلدون غورست [٢] .

ثم قال كتشنر سنة ١٩١١ « أكثر سلفاى من بيان الحوائل التى تعوق سبيل التقدم بمصر من جراء الامتيازات الأجنبية ، حتى أغنانى عن الإشارة إلى تعويق الدول الأجنبية لتقدم مصر ، والمأمول أن الاحتجاج الذى احتجته مصر فى المؤتمر الصحى الدولى الأخير يؤول إلى تخفيف وطأة هذه الوصاية التى لا تزال وهقاً فى عنق مصر » [٣]

وقال لورد ملنر فى كتابه عن إنجلترا بمصر إن الحركة الوطنية من الطبيعى أن تتجه باهتمامها إلى المساوىء الشنيعة التى نجمت عن امتيازات الأجانب فى الديار المصرية .

استخزى المصريون من هذه الامتيازات التى يتبجح بها الأوروبيون وغيرهم من المحتمين بحكومة أوربية ، وبعد صبر طويل لا يطاق ضجوا بالشكوى إلى السلطان تارة وإلى الخديو تارة ، فلم يُشْكِهِمْ هذا ولا ذاك . ثم اجتمع إلى بَرَمِهم بَرَمُ الخديو إسماعيل بما تفرضه عليه الامتيازات من قيود ، فبدأ يتخذ الوسائل للحد من سلطانها الواسع ، فوحد القضاء وأنشأ المحاكم المختلطة .

---

(١) ١١ يوليه وضرب الإسكندرية ٢٧ العقاد (٢) تقرير عن مصر والسودان سنة ١٩٠٧
(٣) تقرير كتشنر عن مصر والسودان سنة ١٩١١ ص ٨

٢ — وكان الشعب قد استنار وبلغ حداً من اليقظة يؤهله للثورة . يدل على يقظة الشعب قبل الثورة العرابية قول أحمد شفيق فى مذكراته : « وانقلبت مصر مسرحاً للخطب فى كل مجتمع وناد حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء ، واعتلوا منصة المغنين بعد إقصائهم عنها ، حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل : فى أى نوع تغنى الليلة ؟ أجاب : فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم .

وكثيراً ما كان الخطيب يستصحب معه بعض طلبة المدارس ، وبعد خطابته يقدم أحدهم إلى الجمع ليخطب فيهم ، فينبرى الطالب مثيراً فى الحاضرين الغيرة والحمية . وقد شاهدت عبد الله نديم يقدم فتحى أفندى زغلول الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب فى حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته فى السياسة كل مجال أمسك عبد الله نديم بذراعه وقال للحاضرين : ألا تعجبون لما أبداه هذا التلميذ فى خطبته من العلم والبيان والافتنان فى الموضوعات ، مع أن جلادستون خطيب إنجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً فى خطبته ؟

وقدم مرة أخرى فى إحدى الحفلات الطالب مصطفى أفندى ماهر ، فخطب القوم وراقتهم خطبته ، فقال عبد الله نديم : أشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها .

وكان عرابى وعبد العال حلمى والبارودى وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها ، فإذا انتهت خرج الناس منها ، وكأنهم أهل سياسة ورياسة ، وحينئذ أصبح الناس كلهم عرابى ، وأصبح عرابى الناس كلهم[1] .

(٣) على أن عرابى كان يتقد وطنية منذ عهد سعيد ، فقد كان سعيد يذكر فى أسى عصور الاحتلال منذ القدم ، ويحض على صيانة مصر من أى عدوان آخر ، وقد أهدى إلى عرابى كتاباً فى تاريخ نابليون ، وأعلم الكبراء فى حفل عام أنه عازم على إعداد المصريين ليخدموا وطنهم ويستغنوا عن الأجانب .

قال عرابى فى مذكراته : ولشدة إعجاب سعيد باشا بى اهدى إلى (تاريخ نابليون

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن ١/١٤٦

بونابرت) باللغة العربية ، طبعة بيروت ، وهو بادى الغيظ من تغلب الفرنسيين على البلاد المصرية . وكان يحرض على حفظ الوطن من طمع الأجانب » .

ويقول : « ولما طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا إلى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك سبباً فى مطالعتى كثيراً من كتب التاريخ العربى . وازداد هذا الشعور تأصلا فى نفسى عندما سمعت خطبة ألقاها المرحوم سعيد باشا فى مأدبة أدبها بقصر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين وأعضاء العائلة الحاكمة وأعاظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين ، وبعد تناول الطعام فى سرادق كبير . قال سعيد باشا :

أيها الإخوان : إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مستعبداً لغيره من أمم الأرض ..... ثم أغارت فرنسا على مصر واحتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بونابرت .

وحيث إنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً ، لأجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل .

فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا . أما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . وأما أنا فقد اعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام (مصر للمصريين) (١) .

(٤) أما الأسباب المباشرة للثورة العرابية — عدا هذه اليقظة — فإنها كلها تفترق فى ظواهرها لكنها تتوافى على غرض واحد هو الوطنية .

فالحالة المالية سيئة يتفاقم شرها ، والشعب ينوء بالمغارم والضرائب التى يحتملها ، وينوء بوسائل الإعنات فى جمعها ، والمستثمرون من الشعب يأنفون من خنوع حكومة رياض للحكومات الأوروبية ، وخنوعها لمطالب الدائنين ، ومن التدخل فى شئون مصر المالية وغير المالية ، ومن احتكار الأجانب لثروة مصر .

كتب عرابى فى مذكراته : « كنت مأمور الحملة إلى الحبشة سنة ١٢٩٢ هـ وفى عهدتى عشرة آلاف حيوان من الجمال والخيل والبغال ، وأغلبها أخذ من المصريين

---

(١) مذكرات عرابى ١/١٠٥

غصباً بلا ثمن ، وكذلك العلف من الشعير والفول والذرة والتبن . وقد أخذت من المصريين بلا عوض غير الوعود الكاذبة بخصم الأثمان من الضرائب المطلوبة منهم ، وتلك الضرائب لانهاية لها ، فلا يمكن لأى حاسب أن يعرف ماله وما عليه : لكثرة الضرائب غير القانونية [1] » .

والأحوال السياسية أسوأ ، لأن الحكومة تستبد وتهمل المرافق العامة ، وتشتط فى جباية الأموال ، وتستجيب لأوامر الأوروبيين ، بل إن الأوروبيين هم الذين يسيّرون شئون الحكم . فلم يجد المستنيرون وسيلة للخلاص من هذا الفساد إلا الدستور والبرلمان والحياة النيابية التى تكفل العدل والحرية والطمأنينة والهيمنة على الحكام .

لذلك أجمع المتنورون من الضباط ومن الشعب على المطالبة بالمجلس النيابى .

وكان الشعب يأمل الخير فى توفيق ، لكنه تنكر لما كان يأمله فيه . ذلك بأنه فى فى أواخر عهد إسماعيل وضع شريف باشا دستوراً سنة ١٨٧٩ فيه أحدث الأسس العصرية ، ولم يكد يتمه حتى خلع إسماعيل ، فترقب الناس أن يرحب توفيق بالدستور لكنهم كانوا واهمين ، فاضطر شريف باشا إلى الاستقالة .

فلم يكن بدعا أن يتذمر الشعب من حكم توفيق وهو فى مستهله ، وأن يجاهد لنيل دستوره المنشود وإلى ذلك يشير البارودى [2] . وبهذا التذمر سنحت الفرصة لتقوية الثائرين والانضمام إليهم .

وكان رياض باشا ظهيراً للخديو توفيق وللنفوذ الأوروبى ، فأخذ يقمع الحركة الإصلاحية ما استطاع ، فزاد الناس سخطا وتبرما .

وكانت بمصر صحف جريئة تشهر بالفســـاد ، وتندد بالاستبداد ، وتدعو إلى الإصلاح وإلى الدستور ، وتحتمل فى دعوتها ألوانا من الاضطهاد فكانت وزارة رياض تنذرها أو تعطلها ، كجريدة (مصر) و (التجارة) لأديب إسحاق ، و (مرآة الشرق) و (المفيد) و (مصر الفتاة) و (الإسكندرية) و (المحروسة) . ومنعت جريدة (النحلة) و (أبو نضارة) و (القاهرة) و(الشرق) من دخول القطر المصرى .

---

(١) مذكرات عرابي ١/٢٩

(٢) ديوان البارودى ٢/٣٥٩

وقد التأم شمل الداعين إلى الحرية والتحرر فى حزب واحد، سموه الحزب الوطنى (قبل أن ينشىء مصطفى كامل حزبه)، وكان من رجاله أحمد عرابى. وأصدر الحزب أول بيان له فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩. وأنشئت بالإسكندرية جمعية مصر الفتاة، وقدمت للخديو عريضة تطالب فيها بالحرية. وأنشأت هذه الجمعية جريدة باسم (مصر الفتاة). ورأت إنجلترا أن الحزب الوطنى يعظم تأثيره، وتذيع أفكاره، ومنها المطالبة بحياة نيابية، والتخلص من الرقابة المالية، ورأت أن وزارة محمود سامى البارودى قد خلفت وزارة شريف الثانية واتجهت إلى تحقيق الحياة النيابية الصحيحة، فكبر عليها وعلى فرنسا الأمر، واتفقتا على إطفاء نور الحرية بمصر، وطمس مظاهر الوطنية، فانتهزت إنجلترا فرصة استنجاد الخديو توفيق بها وأرسلت هى وفرنسا بعض قطع من أسطولها، وسقطت وزارة البارودى [1].

وثمة سبب من أسباب الثورة، هو فى ظاهره سبب خاص بالضباط المصريين فى الجيش، لكنه فى باطنه أنفة من تمييز الأتراك والجركس على نظائرهم من ضباط الجيش، فالغضبة من التفرقة فى المعاملة تضرب بأسباب إلى الاعتزاز بالقومية، والسمو بالوطنية، والأنفة من أن يقدم تركى أو جركسى يتقاضى مرتبه من مصر على ابن مصر الجدير بخير بلاده، وبخدمتها.

وقد تجلى تمييز الأتراك والجركس فى عهد إسماعيل، ثم استفحل فى عهد توفيق، حتى صار الضباط المصريون مضطهدين منبوذين. وتبينوا أن عثمان رفقى — ناظر الجهادية — مُصِرٌّ على حرمانهم من الترقية، وعازم على أن يؤثر عليهم الأتراك والجركس. وقد عزل بعض الضباط المصريين الأكفاء. وكان الضباط الجركس يجتمعون فى منزل خسرو باشا ويتذاكرون تاريخ دولة المماليك على مسمع عثمان رفقى، ويلعنون خيرى بك لتسليمه وإذعانه للسلطان سليم، ويقولون إنه قد حان الوقت لرد بضاعتهم إليهم، يريدون أن يستأثروا بمصر كما فعل المماليك من قبلهم. فاتفق الضباط مع عرابى على تفدية الوطن بأرواحهم، فكتب عرابى إلى رئيس النظار مصطفى رياض باشا يشكو تعصب عثمان رفقى لبنى جلسه، وإجحافه بحقوق المصريين،

---

(١) مذكرات عرابى ١/١١٦ — ١٣٣

وطلب عدة مطالب ، منها تأليف مجلس نواب من نهاء الأمة تنفيذاً لأمر الخديوى الصادر عقيب ارتقائه الأريكة الخديوية[1].

ثم تعقدت الأمور يوما بعد يوم ، وكان تعقدها مواتياً للانفجار ، مقوياً للأحرار الثوار .

ففى سبتمبر ١٨٨١ م اتفق الجيش على التلاقى بميدان عابدين لتقديم طلبات عادلة إلى الخديو . وفى حوار عرابى للخديو يستبين إلى أى مدى بلغ الوعى القومى والشعور الوطنى . فقدسأل الخديو عرابى عن سبب حضوره بالجيش ، فأجابه : جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة .

فقال الخديو : وما هذه الطلبات ؟ قال عرابى : هى إسقاط الوزارة المستبدة — وزارة رياض — وتأليف مجلس النواب على النسق الأوروبى .

فقال الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساننا . فقال عرابى : لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

فدخل الخديو القصر وعاد المستر كوكسن — قنصل إنجلترا فى الإسكندرية — والمستر كلفن — المراقب المالى الإنجليزى — وخاطبنى القنصل نيابة عن الخديو قائلا: إن طلب إسقاط الوزارة وتأليف مجلس نواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش . فقلت : إن طلباتى الخاصة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقاموني نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم إخوانهم وأولادهم .... وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى المطالبة بحقوقهم» .

ثم استجاب الخديو مطالب الجيش ، وعين شريف باشا رئيساً للوزارة ، وأقبل على الوزارة كبراء الأمة مهنئين ومؤيدين عرابى ، وقدموا إليه طلباً بتأليف مجلس النواب [2].

---

(١) مذكرات عرابي ١/٥٦ — ٥٨

(٢) مذكرات عرابي ١/٧٤ — ٨٤ والثورة العرابية ١٢٧ للرافعى وكتاب محمد عبده عن الثورة العرابية . تاريخ الأستاذ الإمام ١/٢٢٢ وفيه أن عرابى لم يرد على الخديو . وأن الذى كلم عرابي هو المستر مالت قنصل انجلترا .

خيانة الخديو توفيق

ولم يلبث الشعب إلا قليلا حتى اشتبك فى صراع حربى بانجلترا المعتدية ، وأيقن فى خلاله أن الخديو يستعدى الإنجليز وأنه ابتهج بضرب بوارجهم الإسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، فاشتد الحنق عليه ، وفكر العرابيون فى خلعه ، ودبروا الأمر لذلك [١] . ثم دعا عرابى إلى عقد مجلس وطنى للنظر فى أمر الخديو ، وواجب الشعب نحو أعماله [٢] . فاجتمع المجلس فى ١٧ يولية سنة ١٨٨٢ ، وكان عدد المجتمعين أربعمائة من ممثلى الشعب وزعمائه ، وقرروا الاستمرار فى الاستعداد الحربى ، وبقاء عرابى فى وزارة الحربية — وكان الخديو قد عزله — ثم اجتمع المجلس مرة ثانية بعد خمسة أيام ، وشهد اجتماعه خمسمائة من ممثلى الأمة على اختلاف طوائفها ، وتليت عليه منشورات الخديو ومنشورات عرابى . وتليت فتوى شرعية من كبار رجال الدين بأن الخديو مرق من الدين مروق السهم من الرمية ، لخيانته دينه ووطنه ، وانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده . وقرر المجلس وقف أوامر الخديو ونظاره [٣] وعدم تنفيذها ، وأن يعرضوا قرارهم على السلطان عن طريق وكلاء النظارات [٤] .

كان الثوار يأملون أن يظفروا فى صد الانجليز ، وفى خلع الخديو ، لكن عوائق داخلية وخارجية حرمتهم الظفر بما يشتهون [٥] . وقد ذكر البارودى صراحة أنهم كادوا يودون انقلاباً يسعد مصر :

كنا نود انقلاباً نستريح به ... حتى إذا تم ساءتنا مصايره

فالقلب مضطرب فيما يحاوله ... والعقل مختبل مما يحاذره [٦]

ونجده يشير فى إحدى قصائده إلى طموحه أن يكون خديو مصر ، ولعله وجد نفسه أحق زعيم بهذا المنصب ، فهو رجل سيف وقلم ، وهو ينتسب إلى المماليك الذين حكموا مصر قروناً ، وطالما خايل بهم ، وفاخر بنفسه وبأصله .

---

(١) الثورة العرابية ٣٧٤ الرافعى (٢) مذكرات عرابى ١/١٨٨ والثورة العرابية ٣٩٤

(٣) كان النظار فى الإسكندرية مع الخديو .

(٤) مذكرات عرابى /١٩٤ — ١٩٦ والثورة العرابية ٣٩٥ ، ٤٠٣

(٥) راجع الثورة العرابية للرافعى ٥٥١ — ٥٦٠ (٦) ديوان البارودى ٢/١٢٧

يدل على ذلك أنه حمل على الخديو حملة مستورة ، ودعا الشعب إلى أن يختاره هو :

قامت به من رجال السوء طائفة ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وَغْدٍ يكاد الدَّسْتُ يدفعه ... بُغْضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل فى خلل

. . . . . .

فالكم لا تعاف الضيمَ أنفسكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل ؟
فبادروا الأمر قبل الفَوْتِ وانتزعوا ... بشكالة الرِّيْث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة ... يكون رداً لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت ... مسالك الرأى صاد الباز بالحجل
إن قال بَرَّ وإن ناداه منتصر ... لبَّى ، وإن همَّ لم يَرْجع بلا نفل [1]

وليس يبعد هذا الاستنباط أن البارودى زعم فى ديوانه أنه قال هذه القصيدة فى عهد إسماعيل ، ولا أنه حنق على الثورة ، ولام الثوار فيما بعد [2] ، وحصر جهوده فى أنه كان يطالب بالدستور و بالعدل [3] .

ويؤيد جنوح العرابيين إلى عزل الخديو وتولية أحدهم أن قنصل إنجلترا قال لعرابى والجيش مجتمع بميدان عابدين : علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ مطالبك بالقوة . فقال له عرابى : إنهم سيقاومون من يتصدى لمعارضتهم إلى أن يفنوا عن آخرهم ، وإنه يستطيع أن يحشد مليون جندى يلبون إشارته . فقال له القنصل : وماذا تفعل إذا لم تُجَبْ إلى ما تطلب ؟ فقال عرابى : أقول كلمة أخرى . فسأله القنصل : ما هى ؟ فأجابه : لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط [4] .

فماذا عسى أن تكون هذه الكلمة إن لم تكن عزل الخديو ؟

---

(١) ديوان البارودى ٢/٢٢٨ طبعة المنصورى . شكالة : الصواب شكال وهو الحبل . الحجل : جمع حجلة وهو الذكر من القبج أو أنثى اليعاقيب . يريد أنه يصل بحسن حيلته إلى مقصده بقليل من العمل . النفل : الغنيمة .
(٢) ديوان البارودى ٢/٣٣٥ طبعة الجارم (٣) الديوان ٢/٣٥٩
(٤) مذكرات عرابي ١/٨٠

ويؤيد ذلك أيضا فى مذكراته : « فى أوائل شهر يناير ١٨٨٢ خلوت بالمغفور له محمود سامى باشا ناظر الجهادية ، فأطنب فى الثناء على . . ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحى حياته فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر إذا رغبت فى ذلك . فرددت عليه بأنى لا أريد إلا تحرير بلادى ، ولا أريد انتقال الحكم من الخديو ، مع علمى بأن البارودى أولى منى ، لأنه ينتسب إلى الملك الأشرف (برسباى) فقال لى البارودى : بل أنت أحق [١] .

قيمة الثورة

هذه الثورة كانت عسكرية وشعبية . كانت عسكرية لأن الجيش هو الذى تزعمها ، فكان معبراً عن نفسه وعن الشعب ، فهو الهيئة التى ظلت بعيدة عن المراقبة ، ولها نظام ، وفيها قوة ، فكان لابد أن يتجمع فيه أستياء الأمة ، وأن يقودها إلى الدفاع عن كرامتها وحياتها . مثله فى ذلك مثل الجيش الباسل فى ثورته فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وقد صدقت جريدة التيمس فى قولها عن ثورة العرابيين : « يجب أن نذكر أن الجيش هو الهيئة الوطنية الوحيدة التى تملكها مصر الآن ، وكل هيئة سواه قد عدا عليها مثلو فرنسا وإنجلترا ، فأخذوا بزمامها وغيروا نظامها » [٢] .

وكانت الثورة شعبية ، لأن هؤلاء الضباط من الشعب ، ثم لأن الشعب أسهم فى الثورة بنصيب عظيم ، وحسبنا أن نذكر فى خطباء الثورة وكتابها : محمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم وحفنى ناصف وأديب إسحاق [٣] .

---

(١) مذكرات عرابى ١/١٠٠

(٢) تاريخ المسألة المصرية ١٢٠

(٣) كان عبد الله نديم خطيباً مفوهاً ، كثيراً ما خطب فى المحافل ، ولا سيما بعد أن أعلن الدستور فى أول عهد توفيق ١٨٨٢ وكان محور خطبه الدستور والحياة النيابية واتحاد الأمة ورعاية مصالحها . ولما اشتعلت الثورة العرابية كان خطيبها فى كل مكان (زعماء الإصلاح ٢٢٨) فهو بقلمه ولسانه موقظ للوعى منبه للشعور . وكان حفنى ناصف يناصر الثورة بقلمه فى الجرائد بإمضاء مستعار (إدريس ابن محمد يس) على لسان سوداني مقيم فى مصر ولما لم تجنده الحكومة لأنه كان وحيد أبويه وحافظا للقرآن تطوع فى الجيش ومكث شهرين فى قشلاق عابدين (من مقال لمجد الدين حفنى ناصف بأخبار اليوم ١٩٥٣/١٢/١٢) .

وقد عرفنا أن الكتاب والخطباء قد مهدوا للثورة ثم صاحبوها وناصروها وهي مشتعلة ، وعرفنا أن الحزب الوطني الأول قد سبق الثورة ، وهذه كلها جهود شعبية .

على أن الشعب قد ناصر الثورة برجاله وبماله وبشعوره ، ووجد فيها الخلاص من ربقة الاستعمار ، والاطمئنان إلى حكم عادل صالح .

وهل ننسى أن مصر اجتمعت في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ ممثلة في خمسمائة من كبرائها فيهم أمراء وعلماء وشيخ الإسلام وقاضي القضاة والمفتي ونقيب الأشراف وبطريق القبط وحاخام اليهود ووكلاء الوزارات (لأن الوزراء كانوا محاصرين عند الخديو بالإسكندرية) والنواب وكثير من الباشوات وكبار الضباط وكبار الموظفين وكبار التجار والأعيان ورؤساء العشائر والعمد — اجتمع هؤلاء في مؤتمر وطني عظيم من جهات مصر قاطبة [1] . وأيدوا عرابي ، ولم يعترفوا بقرار الخديو بعزله من نظارة الجهادية والبحرية ، وأوقفوا العمل بأي قرار يصدره الخديو ، ووافقوا على الفتوى بأن الخديو مارق من الإسلام .

فما الذي يدل على شعبية الثورة إن كان هذا كله لا يدل ؟

وإذا كانت الثورة قد منيت بالخيبة ، فإن هذا لا يغض من شأنها ، أو يدعو إلى ثلب زعمائها والانتقاص من حيوية الشعب ، لأن الثورة يجب أن تقدر بالبواعث عليها ، والآمال المنوطة بها ، كما تقدر بثمراتها ونتائجها .

وسنعرف هذا حينما نتحدث عن قصائد شوقي في عرابي .

الدستور العثماني

نجحت (جمعية الاتحاد والترقي) في جهادها لنيل الدستور ، فصدر في ٢٣ يولية سنة ١٩٠٨ أيام السلطان عبد الحميد [2] ، وانتخب من الأقاليم العربية نواب يمثلون العرب بدار السعادة (الآستانة) . وكان عدد نواب العرب يزيد على ربع أعضاء المجلس [3] .

---

(١) لم تتخلف إلا جرجا وأسوان لبعدهما .

(٢) كان الأحرار قد حملوا السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور والحكم النيابي حين توليته سنة ١٨٧٦ م ولم يدم الدستور طويلا ، فقتل وليدا ، وعاد نظام الحكم المطلق . ثم عاودوا جهادهم .

(٣) كان مجلس النواب مؤلفاً في دورته الأولى من ٢٧٣ للعرب منهم ٧٠ عضوا .

(١) ورأى أحرار العرب فى الدستور كفالة لحريتهم . فانطلقت ألسنتهم من عقالها ، وانفلتت أقلامهم من أغلالها ، واجتمع الناس فى كل مكان ، وتنفس الذين كانوا مختنقين بالإرهاب والاستبداد . فتيقظ العرب ، وأدركوا أنهم عنصر مهمل فى الدولة العثمانية ، وأنهم أصحاب حقوق يجب أن ينالوها ، وورثة مجد يجب أن يبعثوه ، وصدرت صحف عدة فى ظل الدستور بمصر ودمشق وبيروت والقدس ويافا وطرابلس واللاذقية وحلب وجدة وبغداد والبصرة والآستانة ، وكان لها تأثير عظيم فى إيقاظ الرأى العام ، وبث الروح القومى .

ففى مصر شد الدستور العثمانى أزر الداعين إلى الدستور والحكم النيابى ، وحفلت الصحف بالمطالبة بالدستور ، ولما عارض السير إلدون غورست بدعوى أن مصر لم تبلغ من النضج مبلغا يؤهلها للحكم الدستورى — لأنه على ثقة من أن الخديو لا يرضى بالدستور الذى يكف يده عن السلطة ، وقد أطلق الاحتلال يده بعض الإطلاق بعد أن كانت مغلولة زهاء خمسة عشر عاما ، ولأن الحكومة الدستورية ستسلب الاحتلال سلطانه — انبرت له الصحف الوطنية ، وفى مقدمتها (اللواء) تفند دعواه وتحمل عليه . وآزرها مجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٨ فطالب الحكومة بإعداد مشروع قانون يمنح الأمة حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى إدارة الأمور الداخلية ، ومشروعات القوانين الخ .

(٢) ثم استبان العرب — بعد طربهم بالدستور العثمانى وانضمامهم إلى جمعية الاتحاد والترقى — أن أقطاب العهد الجديد يسيرون كسابقيهم فى الحكم ، فيعززون قوميتهم التركية ، ويقاومون العناصر الأخرى ، وأخذت الصحافة التركية تكشف عن نيات الأتراك ، وتنال من العرب ، فانبرت الصحف العربية ترد على التهجم بمثله ، ونظم الشعراء من الترك ومن العرب قصائد ، وكان فى هذا الصراع إذكاء للقومية العربية [١] .

ونجم عن هذا الشعور أن انفض العرب عن الاتحاديين ، وأن شرعوا ينشئون جمعيات عربية فى عواصمهم : بالقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، وفى الآستانة أيضاً ،

---

(١) الثورة العربية الكبرى ١/٣ — ٥

لتعزيز شأن العرب ، والدفاع عن حقوقهم ، وتسويتهم بالترك في الوظائف والأعمال

وكان لهذه الجمعيات وللصحف وقصائد الشعراء أثر عظيم في تقوية الرأي العربي العام ، وإيقاظ الشعور القومي . من هذه الجمعيات جمعية الإخاء العربي سنة ١٩٠٨ بالآستانة ، ثم المنتدى العربي من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٥ . والجمعية القحطانية بمصر من سنة ١٩٠٩ — إلى ١٩١٤ والعلم الأخضر سنة ١٩١٢ .

وأنشئت في باريس الجمعية العربية الفتاة ثم انتقلت إلى بيروت سنة ١٩١٢ . وكانت جمعيات وأحزاب أخرى مثل حزب اللامركزية العثماني ، وجمعية بيروت الإصلاحية ، وجمعية البصرة الإصلاحية ، والنادي الوطني العلمي ببغداد ، ومؤتمر باريس العربي ، وجمعية العهد بالآستانة (أنشأها عزيز علي المصري) ، وجمعية الجامعة العربية [١] .

وهذه الجمعيات كلها تدعو إلى حكم عربي داخلي ، وإلى تعاون العرب على ما فيه خيرهم ، وقد ناصرتها جرائد شتى بالأقطار العربية ، بلغ عددها نحو العشرين ، منها مصر المقطم والأهرام والمنار والمؤيد .

(٣) ومن الحق أن نذكر أن النزوع إلى القومية كان أقدم من إعلان دستور سنة ١٩٠٨ ، فقد نشأت جمعيات في البلاد الخاضعة لتركيا منذ أواخر القرن التاسع عشر تطالب بحقوق العرب ، وتستحث هممهم مسلمين ومسيحيين إلى الاتحاد والحرص على أن يكون لهم كيان ، وتنبههم إلى الغبن النازل بهم . من هذه الجمعيات ، جمعية حفظ حقوق الملة العربية ، سنة ١٨٨١ والجمعية التي انعقدت بباريس من شبان العرب والأتراك سنة ١٨٩٦ تدعو إلى الإصلاح الداخلي ، وأن يحكم الولايات العربية حكام من العرب مستقلين في ظل الخلافة العثمانية [٢] .

(٤) وليس أدل على الاستبشار بالدستور من حفاوة الناس به ، وتدبيجهم المقالات والخطب والقصائد في الترحيب به ، وفي الإشادة بزعماء الانقلاب . ففي مصر شوقي وحافظ وصبري .

---

(١) الثورة العربية الكبرى ١/٦ — ١٢ و ١٤ — ٥٠

(٢) العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث ٥٩ أنيس المقدسي .

وفى سوريا ولبنان عبد الله البستانى ، وشكيب أرسلان ، وفارس الخورى ، ونقولا فياض ، ومحي الدين الخياط ، وشبلى ملاط ، وبشارة الخورى .

وفى العراق الزهاوى والرصافى والشبيبى .

قال شوقى قصيدته (الدستور العثمانى) بيّن فيها فرح الشعوب الخاضعة لتركيا بالدستور ، وأثنى فيها على السلطان عبد الحميد ، وعلى الأتراك ، وأشاد بنعمة الشورى وآثارها فى سياسة الشعوب منها :

بُشْرى البرية قاصيها ودانيها ... حاط الخلافة بالدستور حاميها
لما رآها بلا ركن تداركها ... بعد (الخليفة) بالشورى وناديها

.....

أسدى إلينا (أمير المؤمنين) يداً ... جلّتْ كما جلّ فى الأملاك مُسْديها
بيضاء ما شابها للأبرياء دم ... ولا تكدّر بالآثام صافيها
إن الندى والرضا فيه وأسرته ... والله للخير هاديه وهاديها
قوم على الحب والإخلاص قد ملكوا ... وحسب نفسك إخلاصٌ يُزكيها

.....

الرأى رأى أمير المؤمنين إذا ... حارت رجال وضلّت فى مرائيها
وإنما هى شورى الله جاء بها ... كتابه الحقّ يُعْليها ويُغْليها

.....

أما ترى المُلْك فى عرس وفى فرح ... بدولة الرأى والشورى وأهليها ؟
لما استعدّ لها الأقوام جئتَ بها ... كالماء عند غليل النفس صاديها
فضلٌ لذاتك فى أعناقنا ويد ... عند الرعية من أسنى أياديها
خلافة الله جر الذيلَ حاضرها ... بما منحت وهز العطفَ باديها
طارت قناها سروراً عن مراكزها ... وألقت الغِمد إعجاباً مواضيها

.....

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها
نلتَ الذى لم ينله بالقنا أحدٌ فاهنأ لآثارها واحمد نيازيها [١]

ولم ينس شوقى أن يلمح إلى ما تريده مصر من دستور كالدستور العثمانى :

ما بين آمالك اللاتى ظفرت بها وبين مصر معانٍ أنت تدريها [٢]

ولما نكث السلطان بعهده خلعه الأحرار وولوا بديلا منه السلطان محمد رشاد الخامس فحياه شوقى بقصيدة أشاد فيها بالدستور [٣] .

ولهذا الدستور ذكر مُردَّد أيضاً فى شعر حافظ إبراهيم ، كقوله فى تهنئته للسلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠٨ م :

أثنى الحجيجُ عليك والحرَمان وأظلّ عيدَ جلوسك الثقلان [٤]
أرضيتَ ربك إذ جعلتَ طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
وجمعتَ بالدستور حولك أمةً شتى المذاهب جمعةَ الأضغان
.....
فجعلت أمرَ الناس شورى بينهم وأقمتَ شرعَ الواحد الدّيّان
ثلجت صدورهم وقرّ قرارهم لما حلفتَ بأوثق الأيمان

ورحب بشهر (تموز) الذى أعلن فيه الدستور ، وود أن يكون لمصر نصيب من خيرات هذا الشهر وفأله البهيج :

تموز أنت أبو الشهور جلالةً تموز أنت مُنَى الأسير العانى
هلا جعلت لنا نصيباً علّنا نجرى مع الأحياء فى ميدان
أيعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان [٥]

وقال فى سنة ١٩٠٩ :

وإن لم يدرك الدستور مصرا فما لحياتها أبدا قوام [٦]

---

(١) أنور ونيازى بطلا الدستور العثمانى
(٢) الشوقيات ١/٣٥٨
(٣) الشوقيات ١/٢٠٤ — ٢٠٨
(٤) الثقلان : الإنس والجن
(٥) ديوان حافظ ١/٣٨
(٦) ديوان حافظ ٢/٥٧

ولما خلع الثوار عبدالحميد واستردوا الدستور عبر حافظ عن فرح الشعوب، وعن الألفة والوحدة بين سكان الولايات العثمانية فى ظلال الدستور من مسلمين ومسيحيين ويهود، وبهجتهم بانهيار عهد الاستبداد وخلع عبد الحميد، ثم توعد من ينكر للدستور.

هنيئا لهم فالكونُ فى يوم عيدهم ... مشارقُهُ وضّاءة ومغاربه
رعى به شعبا جمّع العدل شمله ... ونمت على عهد الرشاد رغائبه
تحالف فى ظل الهلال إمامُهُ ... وحاخامه - بعد الخلاف - وراهبه
فمن يطلب الدستور بالسوء بعدما ... حمته يد الفاروق فالله طالبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه ... وولّت أفاعيه وماتت عقاربه
وفى الشرق عيد لم ير الشرق مثله ... تَدفّقُ فى دار السلام مواكبه [1]

وكان ولى الدين يكن من دعاة الحرية، فأسهم فى مهرجان الدستور بقصيدة منها.

بالأمس كنا معشرا ... تبكى لحالتنا المعاشرْ
تقتادنا الأيدى الأثيمة ... للسجون وللمقابر
ويصول أنصار المليك ... على الأكابر والأصاغر
لله قصر شامخ ... مَدّ النواظر عنه قاصر
قَصْرٌ به يعلو التسا ... وى رأسَ مأمور وآمر
لم يبق ظلم يُتّقى ... دارت على الظلم الدوائر [2]

وقال فى سنة ١٩١٠.

يا عصر قد حسدتك اليوم أعصار ... الأمر شورى وكل الناس أحرار
الناس تحت قيود الأسر قد وقعوا ... دهراً ومذ أدركوا حرية طاروا [3]

---

(١) ديوان حافظ ٢/٤٨ يريد بالفاروق السلطان محمد رشاد. وبالعقارب والأفاعى جواسيس السلطان عبد الحميد وبدار السلام القسطنطينية وبالهلال الخلافة العثمانية وبالامام المسلمين وبالخاخام اليهودى وبالراهب النصارى.

(٢) ديوان ولى الدين يكن ٥٤ (٣) الديوان ٣٩

وقال الزهاوى :

وقفت والعين تبكى من مسرتها ... أمام شعب من الأفراح عجّاج
أمام بحر من الأفكار مضطرب ... أمام جيش من الأصوات رَجراج
إن الشعوب إذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب أمواجاً بأمواج
البحر أهدى لنا بشرى بها هدأت ... أرواحنا بعد طول الخوف والرّهَب
بشرى كما تبتغى الآمال صادقة ... أجلّها الناسُ من قاص ومقترب
لقد أقرّ لعمرى أعيناً سخنت ... ما ناله فئسة الأحرار من أرب [1]

فلما تنكر السلطان عبد الحميد للدستور ، واغتصبه الأحرار على رده ، وسقطت وزارة كامل باشا قال الرصافى :

سقتنا المعالى من سُلافتها صرفا ... وغنت لنا الدنيا تهنئنا عزفا
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا ... فأهلا بما زفت وشكراً لما زفا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرا ... وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا ... ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
تربع فى صدر الوزارة كامل ... فخط من النقصان فى وجهها حرفا
لقد أغضب الدستور فعلا ونية ... ومن أعلنوا الدستور والشعب والصحفا
فيا أيها (الصدر) [2] الجديد اتعظ به ... فإياك أن تطغى وأن تثنى العطفا
ويا مجلس النواب سر غير عاثر ... إلى المجد لا تلقى كلالا ولا ضعفاً [3]

ولما وجد الرصافى أن الاتحاديين — بعد إعلان الدستور — يؤلفون الوزارات من غير رجالهم ، ويخضعونهم لخططهم ، هاجم سياستهم الخادعة ، وبين أن لا طاعة إلا للدستور والعدل والحق :

شكاية قلب بالأسى نابض العِرْق ... إلى قائم الدستور والعدل والحق

---

(١) ديوان الزهاوى ٢٧٤
(٢) الصدر الجديد : حسين حلمى باشا
(٣) ديوان الرصافى ١٠٧

ملوك على كل الملوك ثلاثة ... لها الحكم دون الناس فى الفتق والرتق
وأقسم أنى لا أحكون لغيرها ... مطيعا ولو من أجلها ضربت عنق
فهل أيها الدستور تسمع شاكيا ... بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق

.....

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد ... لديهم فيا لله للمسعد المشقى
كأنا لهم شاة فهم يحلبونا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
أترضى بأن نختص بالحكم معشرا ... وتصبح للباقين حبراً على رق

.....

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا ... وشيب وشبان على ضمر بلق[1]

مصطفى كامل والحزب الوطنى

١ — قبيل الثورة العرابية (سنة ١٨٧٤) ولد الطفل الذى أشعل الوطنية فيما بعد ، وسار بها إلى الأمام أميالا[2] ، فى وقت كاد المصريون يستسلمون فيه للقنوط بعد هزيمة الثورة العرابية ، والاحتلال البريطانى ، ومماطلة انجلترا فى الوفاء بوعودها المتكررة بالجلاء عن مصر ، وتخلى الدول الأوروبية عن المسألة المصرية تدعها لانجلترا تصرفها كيفما تشاء ، وإلغاء الجيش المصرى والاستعاضة بجيش ضعيف قليل العدد والعدد يهيمن عليه البريطانيون ، وخضوع الحكومة المصرية لمشيئة بريطانيا ، وتدخل الإنجليز فى شئون الحكومة كلها ، وإلغاء الدستور الذى صدر سنة ١٨٨٢ ، وتأليف مجلس الشورى ضعيف الحول ، وجثوم لورد كرومر على صدر مصر جثوم من لا يرتجى براحه .

أحس مصطفى كامل بذلك كله ، وضاق به ذرعاً ، وكان وطنياً عبقرياً جادت به العناية الإلهية على وطن يعوزه من يوقظه بعد غفلة ، ويبشره بعد يأس .

---

(١) ديوان الرصافى ٣٧٥

(٢) مصطفى كامل ٢٦ للرافعى

جاهد وهو طالب بالمدرسة الخديوية سنة ١٨٩٠ ، وبمدرسة الحقوق . ثم تخرج فتفرغ للجهاد فى مصر وفى أوروبا بالقلم وباللسان ، محرضاً على إخراج الإنجليز من مصر ، ومطالباً بالدستور داعياً إلى الاتحاد وإلى نشر التعليم القومى ، ومنددا بفظائع الاحتلال فى مصر .

وفى سنة ١٩٠٧ دعا إلى تأسيس الحزب الوطنى [1] . والانضمام إليه ، وجعل هدفه الأول (الجلاء) حتى صار أصح تعريف له أنه حزب الجلاء . فانهالت عليه طلبات الانضمام من جميع طبقات الشعب . وعقدت أول جمعية للحزب بدار اللواء فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، وخطب مصطفى كامل خطبة ضافية ، جاء فيها عن أغراض الحزب « إننا لسنا حزباً سياسياً فقط ، بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وإنهاض لها . فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة . حزب يرمى إلى الاستقلال أسّ كل سعادة ، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة ، وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى . هو يرمى قبل كل شىء إلى أن يكون المصرى إنساناً بأسمى معانى الكلمة ، ولا أقصد بالمصرى ذلك الذى نراه فى المدائن يجدّ ويعمل فقط ، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له . فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز ، وإعلاء مكانته ، لأنه ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم . فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية ، وصار رجلا حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته .

إننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ، باسم كرامة الإنسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم » .

ثم نفى تهمة الثورة التى نسبها بعض خصومه إليه ، وشبهوه بحزب العرابيين ، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال ، واستنكر الحكم المطلق ، ودعا إلى التمسك

---

(١) أطلق هذا الاسم على حزب كان قبيل الثورة العرابية . وظل يطلق على جماعة الوطنيين الأحرار إلى أن أسس مصطفى كامل الحزب الوطنى .

بالنظام الدستورى ، وحث على الثبات والاتحاد [١] .

لكن مصطفى كامل لم يسعد بازدهار غراسه وجهاده ، فقد أسلم الروح فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فبكته مصر كلها بكاء متفجعاً ملتاعا .

(٢) ولقد كان مصطفى كامل يستق وطنيته من ينبوع نفسه ، ويروى الشعب من منهله ، ثم يتجاوب مع الشعب فيسقى ويستقى .

وكان أول الأمر يزداد حماسة بما يضفيه عليه الخديو عباس الثانى من تأييد وإكبار وتشجيع .

ذلك بأن عباساً تولى بعد هزيمة الأمة فى الثورة العرابية ، غير راض عما اقترفه جده إسماعيل من سرف وترف وديون ، وأسيفا لما فعله أبوه توفيق من استعانته بالإنجليز واستسلامه لهم ، وقد جاء إلى مصر بعد أن تعلم فى فينا ، وارتوى بأفكار النهوض بأمته وإشراكها فى شئون الحكم ، فوجد الشعب والشباب المستنير يقدر فيه هذه المشاعر ، ويتلقاه بالحماسة والإكبار .

وكانت الفرص مواتية له ، فإن تركيا تلح فى جلاء الإنجليز عن مصر ، وفرنسا تندم على أن فقدت نفوذها فى مصر ، فتحاول أن تستعيده بتأييدها لعباس .

كان عباس عظيم الأمل فى أن تسترد مصر استقلالها فى عهده ، فقاوم التدخل البريطانى فى مطلع حكمه [٢] .

---

(١) مصطفى كامل ٢٦٢ — ٢٧١ للرافعى

(٢) أقال رئيس النظار مصطفى فهمى باشا فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ (بعد توليه الخديوية بعام) فهاج لورد كرومر ، وأصر على عودته ، فلم يعبأ به عباس ، فتوعده كرومر . وابتهج الشعب بجرأة الخديوى وصلابته ، وعبر عن مؤازرته له بمظاهرات عمت قصر عابدين فى ١٨ يناير سار فيها الموظفون والقضاة والأمراء وأعضاء مجلس الشورى (مصطفى كامل للرافعى ٣٠٦ — ٣١٠) .

ورفض أن يكون له مستشار إنجليزى فى القصر يسترشد بآرائه (أحمد شفيق ٢/١٥) وغير كبار الحاشية لأنهم كانوا موالين للإنجليز منذ أيام توفيق (أحمد شفيق ٢/١٦) ورفض أن يجعل يوم ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٧ عطلة رسمية فى مصالح الحكومة بمناسبة احتفال الجالية الإنجليزية فى مصر ببلوغ ملكتهم الستين وكان كرومر يريد ذلك ، ومصطفى فهمى يوافقه (أحمد شفيق ٢/٢٥١) .

وفى سنة ١٨٩٢ عفا عن الذين اشتركوا فى الثورة العرابية (أحمد شفيق ٢/٣٥ — ٣٧) وفى عام ٩٨ ، ٩٩ عفا عن زعماء الثورة ومنهم البارودى وطلبه عصمت (أحمد شفيق ٢/٣١٧) .

وقد وجد فى الزعيم الشاب مصطفى كامل الشخصية الفذة ، والحماسة المتقدة ، والوطنية الملتهبة ، فقربه إليه ، ومده بالمال منذ سنة ١٨٩٤ وتعاهدا على الجهاد لتخليص الوطن من الاحتلال ، فكانا يجتمعان باللجنة السرية فى مسجد الشيخ الخضرى بناحية قصر القبة[١] ، وعملا معاً أعواما ، ثم افترقا[٢] .

وقد أيقن الإنجليز أن الخديو كان يوعز إلى مصطفى كامل باشا صاحب (اللواء) والشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) بانتقاد الاحتلال وكبار رجاله ، وشن الغارة على لورد كرومر وأساليب حكمه .

وسمع الإنجليز أنه أعان مصطفى كامل بالمال ، لإصدار الصحف الإفرنجية ، ونشر الدعاية فى البلدان الأوربية[٣] .

وعرفوا أنه يستكتب كاتباً ليحمل على لورد كرومر فى الصحف الإنجليزية ، وأنه يقرب إليه زعماء الحركة الوطنية[٤] .

لكن حماسة الخديو انطفأت منذ عقدت إنجلترا مع فرنسا الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، فظهر انحيازه إلى الاحتلال ، ومهادنة المحتلين . فحضر عرض الجيش الإنجليزى بميدان عابدين سنة ١٩٠٤ ، ولما سخط الشعب على حضوره اضطرت (المعية) أن تعتذر كاذبة بأنه حضر مصادفة . لكنه عاد فحضر العرض فى العام الثانى[٥] .

فأعلن مصطفى كامل أنه قطع علاقته بالخديو ، وكتب فى اللواء يقول : « إن المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه وإن ضحى فى سبيله بمصلحته الذاتية وأعز ما تميل إليه نفسه »[٦] .

وانتقد مصطفى كامل وقوفه تحت العلم البريطانى فى حفل استعراض الجيش الإنجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ .

ولما استقال لورد كرومر سنة ١٩٠٧ وخلفه السير إلدون غورست ضلع الخديو مع السياسة البريطانية ، وصرح بأنه لا يناوىء الاحتلال ، وبأنه مستعد للتعاون معه ،

---

(١) مذكراتي فى نصف قرن ٢/١٥ أحمد شفيق ومقال للأستاذ محمود عزمى بالأهرام عقب وفاة عباس (٢) مصطفى كامل ٣٢٦ الرافعى (٣) سعد زغلول ١٣٨ العقاد

(٤) مذكراتي فى نصف قرن أحمد شفيق باشا القسم الثانى من الجزء الثانى ١٢٠، ١٢٤، ٣٤٢

(٥) مصطفى كامل ١٨٦ الرافعى (٦) مصطفى كامل ٣٢٩ الرافعى

إذ لا جدوى من تغيير احتلال بآخر ، بل إن الاحتلال البريطانى أفضل من غيره[١] ، فهاجمه مصطفى كامل فى مقالين ملتهبين[٢] ، وأعلن أن الحركة الوطنية ماضية إلى غايتها معتمدة على قوتها[٣] .

(٣) ولما مات مصطفى خلفه محمد فريد ، وحمل لواء الجهاد عاليا ، فدافع عن قضية مصر بلسانه وبقلمه وبماله فى مصر وأوروبا ، وجاهر بعدائه للاحتلال ، واستمسك بالجلاء ، وطالب بالدستور ، ودعا إلى الوحدة وإلى التضحية .

وما زال يروى غرس الوطنية بدمه وماله وجهده حتى اضطر إلى أن يهجر مصر سنة ١٩١٢ ، فتابع جهاده فى سويسرا والسويد وإنجلترا ، إلى أن توفاه الله فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٨ وهو فى برلين .

وسنعرف أن شوقى كان وثيق الصلة بمصطفى كامل وبالخديو عباس ، وأنه شارك مصطفى فى جهاده ، وكان شاعر الخديو وصفيه ، وظهيره فى مناضلة الاحتلال فى مطلع حكمه .

سعد زغلول والوفد المصرى

تلقف سعد زغلول لواء الجهاد منذ أواخر الحرب الكبرى إلى أن حُمّ فيه القضاء .

ولا شك أنه كان متأثراً بمصطفى كامل ، وكان يدين له بأنه السابق إلى الإيقاظ والإنهاض[٤] .

وقد بدأ يمثل المقاومة الشعبية منذ كان عضـــواً فى الجمعية التشريعية ، ووكيلها المنتخب .

---

(١) المرجع السابق ٣٣٣ ومحمد فريد ٦٥ الرافعى

(٢) اللواء ٢٦، ٢٧ مايو سنة ١٩٠٥ (٣) مصطفى كامل الرافعى ٣٢٩

(٤) يدل على ذلك قوله سنة ١٩٢١ «أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال ، وأن حركتها الاستقلالية بدأت من زمان طويل ، خصوصاً من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل ، وتلاه المرحوم محمد فريد هؤلاء الذين أسسوا ، وأيدوا ما أسسوا فى النهضة الحاضرة (مصطفى كامل ٤٢٦)

وقال فى سنة ١٩٢٣ : «لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم . لا أقول ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره . إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من محمد على ، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل باشـا فضل غزير فيها ، وللمرحوم محمد بك فريد (مصطفى كامل ٤٢٦)

وفى أعقاب الحرب الأولى بدأ سعد وبعض أصحابه يتشاورون فيما يجب أن يعملوه لإنقاذ وطنهم من قيود الاحتلال ، واتفقوا على إنشاء الوفد المصرى .

فلما دوّى نفير السلام بعد التطاحن العالمى ، وشرع المتطاحنون يمهدون للصلح رأى الوفد أن الوقت ملائم لإسماع صوت مصر ، مطالبةً بحقوقها ، متطلبة من الحلفاء المنتصرين أن يحققوا وعدهم الذى طالما تصايحوا به مدة الحرب : أنهم يحاربون لإقرار الحريات ، ونصرة الأمم الضعيفة المستعبدة .

وبدءوا جهادهم فى الداخل وفى الخارج داعين إلى الاستقلال التام .

ولم يمض إلا زمن قليل حتى نفت السلطة العسكرية سعداً ونفراً من صحبه إلى مالطة ، ثم أطلقت سراحهم ، فاتجهوا إلى مؤتمر الصلح ، فلم يحفل بصوت مصر .

ثم نفت سعداً وصحبه سنة ١٩٢١ إلى سيشل بعد أن قطع المفاوضة مع إنجلترا ، لأنها لا تحقق الاستقلال التام .

وبينما كان سعد فى منفاه أصدرت إنجلترا من جانبها تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

ثم أطلق سراح المنفيين فعادوا ، وقاوموا المشروع . لكن الدستور قد وضع والانتخاب تم ، ونال الوفد أكثرية ، فألف سعد وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ ثم تولى رئاسة مجلس النواب من ١٩٢٦ إلى ١٩٢٧ حتى وافاه القضاء .

ولقد كان جهاد سعد وأعوانه شعلة قَبَس منها الشعب ناراً ونورا ، فازداد حماسة واشتعل وطنية ، وفدى مصر بالدماء والأموال ، كما سنرى فى ثورة ١٩١٩ .

وكان من أثر هذا أن اضطرت إنجلترا إلى إلغاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر ، وإن كان استقلالا مقيداً بشروط .

ونجم عن ذلك إصدار الدستور سنة ١٩٢٣ .

ولم يكن الأدب بمعزل عن هذا الميدان ، فقد غذى الأدباء الجهاد ، وأشادوا بالمجاهدين ، كما تأثروا هم ببلاء الأحرار فى ميدان النضال .

وسنعرف من دراستنا لشوقى أنه كان على وشيجة قوية بسعد زغلول منذ صباه ، وأنه أشاد به وبجهاده مرات ، وأبدى رأيه فى مشروع ملنر وفى تصريح ٢٨ فبراير ،

وأشاد بثورة سنة ١٩١٩ وبالدستور والاستقلال ، ويستعرف أنه كان يقف من الأحزاب موقف المراقب المحايد الحريص على سلامة الوطن .

ثورة سنة ١٩١٩ [١]

كان المصريون يكظمون غيظهم فى سنوات الحرب الكبرى ، ويتربصون نهايتها ، لأنهم ساخطون على الحماية البريطانية وما جرته عليهم من ويلات :

١ — فهم ساخطون على الاحتلال ، وعلى إنجلترا التى نكثت بوعودها المتكررة بالجلاء ، والتى تسعى لفصل السودان وابتلاعه . وقد ألغت الجيش المصرى والبحرية المصرية ، ونصبت مستشارين من الإنجليز فى كل وزارة يستأثرون بالحكم والنفوذ ، وجعلت المناصب الكبرى حُكْرة لبنيها ، وأبطلت النظام الدستورى الذى نالته مصر قبل الاحتلال ، ثم عطلت الجمعية التشريعية التى كانت صورة ناصلة لمجلس النواب . فلما وضعت الحرب أوزارها ، أمل المصريون أن تنجز إنجلترا وعودها ، وأن تتذكر المساعدات القيمة التى قدمتها مصر لها فى سنوات الحرب ، لكن إنجلترا خيبت الآمال ، إذ كافأت المصريين بأعمال تدل على اعتزامها توطيد الحماية .

٢ — وهم يَرِمون بمظالم السلطة العسكرية ، فقد قيدت الحريات ، وغلّت الصحافة ، وحظرت الاجتماع ، واعتقلت كثيراً من رجال الحزب الوطنى ، ونفت آخرين ، وراقبت كثيرين .

وقد تذمر الشعب لأن السلطة جمعت نحو مليون وربع مليون من فلاحى مصر وعمالها بدعوى أنهم متطوعون ، وهم فى الحقيقة مغْتَصَبون اغتصاباً ، وقد فرقتهم على ميادين الحرب ، فأُهْمِلوا أسوأ الإهمال ، وعوملوا أشنع معاملة ، وحسبنا أن بعض كتاب الإنجليز شهدوا بذلك ، واستنكروه [٢] . كما أن السلطة العسكرية جمعت نحو ١٢,٠٠٠ جندى من رديف الجيش المصرى للعمل فى الميادين .

---

(١) راجع (ثورة ١٩١٩) فى جزأين للرافعى . و(سعد زغلول) للعقاد

(٢) ثورة ١٩١٩ للرافعى ١/٤٢

واغتصبت من الفلاحين أفره دواب الحمل ، ومقادير عظيمة من المحصولات الزراعية بأثمان بخسة ، وأصحابها فى حاجة إليها .

واقتسرت الأغنياء على التبرع للصليب الأحمر البريطانى بأن فرض رجالها على الأغنياء إتاوات فى صورة تبرع ، حصلوها بطريق الإحراج والتوريط ، وبطريق الضغط والتهديد .

٣ — ولم يطق المصريون أن يعيث جنود الإمبراطورية فساداً ببلادهم ، وأن تتوالى جرائمهم وعدوانهم على الشعب : سراته ، وسوقته ، وهم جنود أفظاظ لم يستطع رئيس الشرطة الإنجليزى بالقاهرة أن يصدهم عن بعض جمحاتهم إلا بإطلاق النار عليهم[1] . وحسبنا فى تمثل فظائعهم أن يقول المستر روبرستن عضو البرلمان الإنجليزى بعدما قص مارأى بعينه : إن ما أحدثه جنود المستعمرات فى مصر لا يمحى أثره فى قليل من السنين . وإنى — والحق يقال — كنت أخجل أشد الخجل من انتسابى إلى بلادى ، وكثيراً ما أنبت الإنجليز تأنيباً مراً[2] .

٤ — ومن عجب أن تستبيح بريطانيا من خزانة الحكومة المصرية ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه باسم المنحة[3] .

وقد زادت الحال المالية سوءاً ، لأن مساحة القطن قلت ، ولأن أسعاره هبطت إلى أقل من خمس الثمن الذى كان يجب أن يباع به .

٥ — وكانت الامتيازات الأجنبية ما زالت قائمة ، وما زال المحتمون بها يعيثون بين الناس فساداً ، ويقابلون هذا الحق الذى منحتهم إياه الدولة العثمانية بالجحود والغدر والعدوان .

يمثل حالهم قول حافظ إبراهيم :

وفى الرومى موعظةٌ لشعب جدَّ فى اللَّعِب
يُقتَّلُنا بلا قَوَدٍ ولا ديةٍ ولا رَهَب

---

(١) سعد زغلول ١٨٢ العقاد وثورة ١٩١٩ للرافعى ١/٢٧
(٢) ثورة ١٩١٩ للرافعى ١/٤٣ (٣) ثورة ١٩ للرافعى ١/٣٨

ويمشي نحـــو رايته فتحميه من العطب[1]

وقول إسماعيل صبري سنة ١٩١١ م :

ويحكم ما لصنعهم أبطر القو م فعقوا ما كان من إحسان
ولماذا تمخض السلم عن حر ب لظاها يشوي الوجوه عوان
منح قد بذرن في شر أيد كن مذ كن منبت الكفران

٦ — وضع السير وليم برونيت في نوفمبر سنة ١٩١٨ مشروع قانون نظامي لمصر يهبط بها إلى مستعمرة بريطانية ، إذ ينص على إنشاء مجلس نواب مصري مؤلف من المصريين . لكنه استشاري محض ، بجانبه مجلس شيوخ يملك وحده سلطة التشريع ، وهو خليط من المصريين والأجانب ، بحيث يكون أكثره من الأعضاء الرسميين — هم الوزراء المصريون والمستشارون الإنجليز ومن في مرتبتهم من الموظفين البريطانيين — والأعضاء الأجانب المنتخبين .

ولم يكد الشعب يعلم بهذا المشروع حتى سخط عليه وعلى نيات بريطانيا ، لأنه يهدم الاستقلال الداخلي الذي نالته مصر منذ سنة ١٨٤٠ ، فهو رجعة إلى تفكير لورد كرومر سنة ١٩٠٤ في إنشاء مجلس تشريعي مختلط ، ينزل بمصر إلى حضيض الذل والمهانة .

٧ — أعلن الرئيس ولسن شروطه الأربعة عشر ، ومنها إنصاف الأمم الضعيفة وتخويلها الحق في تقرير مصيرها ، وأنكر على الدول القوية استعباد الشعوب ، كما أنكر حكم الشعوب لسلطات مطلقة .

فاستثارت هذه الدعاوى — التي لم تتحقق فيما بعد — النزوع إلى استقلال والحرية في الشعوب المغلوبة . وكان المصريون أسبق الأمم الصغيرة إلى المطالبة بحقوقهم ، وزادهم حماسة أن الحلفاء — ومنهم بريطانيا — وافقوا على مبادىء ولسن ، وأن إنجلترا وفرنسا أعلنتا في نوفمبر سنة ١٩١٨ أنهما تعتزمان تحرير الشعوب التي أنقذت من الحكم العثماني تحريرا نهائيا ، وتأسيس حكومات وإدارات أهلية يختارها الشعب اختيارا حرا

---

(١) ديوان حافظ ٢/١١٠

٨ — فى هذا الجو الخانق المنذر بالعاصفة كان الشعب كله متيقظاً إلى حقوقه المسلوبة ، حريصاً على استرجاعها .

وكان قريب العهد بنهضة السابقة ، وبالثورة العرابية التى قامت لمصاولة الاستبداد الداخلى والتدخل الأجنبى ، ولتوطيد دعائم الحكم الدستورى .

وكان ملتهباً بالروح الوطنى الذى بثه مصطفى كامل والحزب الوطنى من سنة ١٨٩٠ إلى ١٩١٩ .

وقد رفد ذلك كله انتشار التعليم ، وتنبه الغافلين ، وصيحات الصحافة والشعراء والكتاب .

فأنف الشعب أن يحتمل العسف والمغارم فى الأنفس والأموال والكرامة والاستقلال ، وأن يُجبَر على البذل فى غير طائل ، بل هو يجبر على البذل فيما يجر عليه الوبال .

٩ — ثم تألف الوفد المصرى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ليجاهد لنيل الاستقلال التام ما استطاع إليه سبيلا .

فكان تأليفه ، وتوكيل الشعب إياه ، ورفض سعد زغلول إنذار الجنرال وطسن له فى ٦ مارس سنة ١٩١٩ الوقود الذى أعدته الثورة .

فلما اعتقل سعد وصحبه فى ٧ مارس ١٩١٩ كان اعتقالهم الشرارة الأولى لثورة مصر العاتية سنة ١٩١٩ .

وقد ظن الإنجليز أنهم إذا ما نفوا سعدا ورفاقه غفلت الأمة عن مطلبها الأسمى ، فنفوهم إلى مالطة سنة ١٩١٩ لكنهم كانوا واهمين فى ظنهم ، فإن النفوس كانت تغلى وتقارب الانفجار قبل نفيه ، فجاء نفيه وصحبه آخر ضغط على المرجل المستعر فلم يطق أن يحتبس ما بداخله .

وإذاً فقد اندلعت الثورة وأخذت تتفاقم وتتفاقم ، وكلما استشهد نفر من المصريين زاد التفاقم ، وقويت الحماسة . والمصريون العزل يقابلون الجنود البريطانيين المدججين بالسلاح أو المتسترين بالدبابات والمصفحات غير هيابين ، بل أحياناً يقهرونهم . وإذا

ما سقط حامل العلم صريعاً تسابق إلى حمله إخوانه ، لينالوا شرف الجهاد أو شرف الاستشهاد .

١٠ — ومازالت مصر تجاهد وتناضل جهادا لا هوادة فيه ولا لين إلى أن تعددت الأحزاب ، وتهافتت على حطام الحكم . حينئذ تصدعت الوحدة ، وتفرقت الكلمة ، وانفلت القوة الرهيبة ، ووجد القصر والإنجليز الفرصة سانحة للتلاعب بالأحزاب ، والعدوان على حقوق الشعب .

ثم شاء الله لمصر أن تبرأ من سقامها بثورة جيشها الباسل فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢

١١ — ولقد حققت ثورة ١٩١٩ بعض ما كان مأمولا .

ذلك بأن إنجلترا اضطرت إلى إلغاء الحماية بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، واعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة .

وهذا لا ينفى أن مكانة مصر الدولية بعد التصريح خير منها فى عهد الاحتلال والحماية بكثير .

ونجحت الثورة فى تقرير النظام الدستورى بمصر ، وبه توطدت سلطة الشعب ، فاستمسك بحقوقه وحريته الشخصية . وكانت الثور غذاء روحياً للشباب وللأحرار فى الجهاد الطويل الذى تلاها ، وفى الاعتزاز بمصر ، والسعى إلى إنهاضها فى العلم والاقتصاد والصناعة والتجارة وكل ما يعلى من شأنها ويرفع قدرها .

وقد حفلت الثورة بضروب شتى من النخوة والأريحية والإخاء ، فاتحد فيها المسلم والقبطى ، والمتعلم والأمى ، والفقير والغنى ، والحضرى والريفى ، وخرجت العقائل والآوانس من خدورهن يتعرضن لما يتعرض له الرجال من عدوان الجند الغاشم .

وأثمرت الثورة ثمرتها فاضطرت انجلترا أن تفرج عن سعد وصحبه . لكنهم ائتنفوا جهادهم فى مصر وفى باريس وفى لندن وفى أمريكا .

فلما يئس الإنجليز من إقناعهم بمعاهدة لا يرضونها نفوهم إلى سيشل فى آخر سنة ١٩٢١ .

أما أثر ثورة ١٩١٩ فى الأدب فهو محتاج إلى دراسة مستقلة .

وسنرى شوقى يلهج بهذه الثورة وإن لم يكن قد شهدها بنفسه ، لأنه كان فى المنفى .

الفصل الثالث

ينابيع وطنيته

(١) عاصر شوقى كثيراً من الأحداث السابقة فى (ضحا الوطنية) ، وأسهم فى بعضها ، وتأثر ببعضها تأثراً مباشراً . أما الأحداث التى لم يعاصرها ، لأنها سبقت نشأته ، فقد عاش فى أعقابها ، فتأثر بها تأثراً غير مباشر ، على أنه تأثر بما نجم عنها من وعى ويقظة

وقد كان لهذا كله أثره القوى العميق فى وطنية شوقى .

وسنرى فى (فنون وطنيته) المدى البعيد الذى كان لهذه الأحداث فى شعره .

(٢) وهو إلى ذلك مصرى المولد والمنشأ والإقامة ، ومصرى الأب والأم مولداً ومنشأ وإقامة ، وإن كان يضرب بأجداده إلى الأتراك والعرب واليونان والجركس . فقد قدم جده لوالده — أحمد شوقى — إلى مصر يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على باشا ، فأدخله فى معيته ، وجعل يترقى إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية .

أما والد شوقى فقد ولد بمصر ، وبها نشأ وعاش ، وفيها مات .

وأما جدة لوالدته — أحمد بك حليم — فهو من الأناضول ، وقد وفد على مصر فتى كصهره ، فاستخدمه والى مصر إبراهيم باشا ، ثم زوجه بمعتوقته جدة شوقى لأمه . وهذه الجدة أصلها من المورة ، جلبت أسيرة حرب ، وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها ، وكان زوجها أثيراً عنده .

فهو إذاً كما حدث عن نفسه : عربى ، تركى ، يونانى ، جركسى بجدته لأبيه ، أصول أربعة فى فروع مجتمعة ، تكفلها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل . على أنها بلادى ،

وهى منشئ ومهادى ، ومقبرة أجدادى . ولد لى بها ولدان ، ولى فى ثراها أب وجدان . وبعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان »[١] . ثم رزق أمينة فيما بعد .

ولد شوقى بمصر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠ م . فلما بلغ الرابعة أدخله أبوه فى مكتب الشيخ صالح ، ثم ألحقه بالمدرسة الثانوية . فلما اجتازها دخل مدرسة الإدارة (الحقوق) سنة ١٨٨٥[٢] ودرس بها سنتين ، وكان قسم الترجمة قد أنشىء بها فعدل شوقى إليه ، ولبث به سنتين أخريين ونال الشهادة النهائية .

وكان يمدح الخديو (توفيق) وهو طالب ، فلما تخرج ألحقه بمعيته . ثم بعثه إلى فرنسا سنة ١٨٨٧ م على نفقته ، ليدرس القانون والآداب الفرنسية فى أربعة أعوام ، فقضى شوقى بمدينة مونبليه عامين ، وفى باريس عاماً ونصف عام ، وأحرز الشهادة النهائية ، فرأى الخديو توفيق أن يبقى بفرنسا ستة أشهر ، ففعل . ثم عاد إلى مصر وتولى منصبه فى معية الأمير . فلما توفى توفيق سنة ١٨٩١ تولى ابنه عباس ، فقرب شوقى إليه . ومابرح يتدرج فى المناصب بالقصر حتى تولى رياسة القلم الإفرنجى .

وسمت مكانته فى عهد الخديو عباس ، فسمى شاعر الأمير ، وكان من خاصة عباس ومستشاريه . ولما نشبت الحرب الكبرى ١٩١٤ — ١٩١٨ أعفى من منصبه فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ثم نفى من مصر ، فاختار برشلونة مثوى له ولأسرته ، ولم يؤذن له فى العودة إلى مصر إلا فى آخر سنة ١٩١٩ .

وعاد إلى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٠[٣] .

عاد شوقى فى أعقاب الثورة المصرية على الاحتلال والمحتلين ، فائتنف تغريده لمصر وللعالم العربى والإسلامى بصوت أقوى ، وبنغم أشجى ، وبنفس أطول ، وبعاطفة أشد وأمضى ، إلى أن توفى فى ١٤ يونية ١٩٣٢ .

(٣) وهو يحب مصر ، لأنها وطنه الذى امتزج به امتزاجاً ، وارتبطت به عواطفه بروابط شتى .

---

(١) مقدمة الشوقيات بقلم شوقى ١٤ـ١٥ طبعة سنة ١٨٩٨

(٢) مقال أحمد زكى باشا بمجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٣٨٢

(٣) أبى شوقى . حسين شوقى ٥٤ ومذكراتى فى نصف قرن . أحمد شفيق ٣/٢٥٦ .

فقد استهل على أرضها، ونشأ فى ربوعها، وطعم من خيرها، وهى موطن أبيه وأمه، ومثوى جديه وجدتيه:

على جوانبها رفّت تمائمنا ... وحول حافاتها قامت رواقينا
ومطلع لسعود من أواخرنا ... ومغرب لجدود من أوالينا
أرض الأبوّة والميلاد طيّبها ... مرّ الصبا فى ذيول من تصابينا[1]

وفى مصر رزق أبناء يحبهم، وسيمضى عنهم ويخلفهم لهذا الوطن وديعة. يقول فى مناجاة النيل.

لى فيك مدح ليس فيه تكلف ... أملاه حب ليس فيه تملّق
مما يحمّلنا الهوى لك أفرخ ... سنطير عنها وهى عندك ترزق
تهفو إليهم فى التراب قلوبنا ... وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم والله جلّ جلاله ... منا ومنك بهم أبرّ وأرفق
فاحفظ ودائعك التى استودعتها ... أنت الوفىّ إذا اؤتمنت الأصدق[2]

ويكرر هذا المعنى فى قوله:

مصر العزيزة مالى لا أودعها ... وداع محتفظ بالعهد مدّكر
خلّفت فيها القطا ما بين ذى زغب ... وذى تمائم لم ينهض ولم يطر
أسلمتهم لعيون الله تحرسهم ... وأسلمونى لظل الله فى البشر[3]

وحبه للنيل حبّب إليه أن يختار بيته مطلا عليه «إذ كان دائماً يحب أن يكون بالقرب منه. لذلك كانت له (ذهبية) قبل الحرب، أى وقت ما كنا نقطن بالمطرية. كما كان يردد هذا البيت، وهو لأحد شعراء عصر الفاطميين.

إذا كنت فى مصر ولم تك ساكناً ... على نيلها الجارى فما أنت فى مصرا[4]

ثم بنى على النيل قصره (كرمة بن هانىء).

---

(١) الشوقيات ٢/١٢٨، ١٣٢ (٢) الشوقيات ٢/٨٧
(٣) الشوقيات ٢/١٥٥ (٤) أبى شوق ٩٧

وقد صاغ فى النيل قصيدته الرائعة :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تُغْدِق [١]

كما كان مفتونا بجمال مصر : ريفها ، ومناظرها الطبيعية ، وجزيرتها ، وشمسها [٢].

(٤) وكان شوقى على صلة وثيقة منذ صباه بمصطفى كامل . يدل على ذلك أن مصطفى ألف رواية وهو طالب بمدرسة الحقوق ، وأهداها إلى والد شوقى بعبارة واضحة الدلالة على قوة هذه الصلة « هدية المؤلف لحضرة والده الأجل على بك شوقى حفظه الله » وهى رواية تاريخية تمثيلية عن فتح الأندلس .

وقد حدث شوقى أنه كان مع مصطفى كامل عند ما اختار شعاراً له جملته المشهورة (لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة) وكان مصطفى قد وجد الجزء الأول منها (لا حياة مع اليأس) فأشار عليه شوقى أن يضيف إليها (ولا يأس مع الحياة) [٣].

ثم شارك مصطفى فى جهاده ، فكتب فى (اللواء) [٤] . وقد ذكر مشاركته فى البعث والدعوة إلى الاستقلال والحرية فى قوله يناجى مصطفى سنة ١٩٢٥ م :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلا ... سهرنا عن معلمهم وناما

مِهارُ الحقّ بَغّضنا إليهم ... شكيمَ القيصريّة واللجاما

لواؤك كان يسقيهم بجام ... وكان الشعر بين يدىّ جاما

من الوطنية استبقوا رحيقا ... فضضْنا عن مُعتّقها الختاما

غرسنا كرْمها فزكا أصولا ... بكل قرارة وزكا مُداما [٥]

وهو من أصدق أصدقاء مصطفى كامل وأكثرهم به إعجاباً [٦] . وكان مصطفى يبادله الإعجاب ، يدل على ذلك قوله فى كتاب لمحمد فريد . « وإذا قابلت شوقى فقبله لى مرتين، وقل له أن يرسل ما طبع من ديوانه مع صورته ، وأعطه عنوانى » [٧] .

---

(١) الشوقيات ٢/٧٧

(٢) الشوقيات ٢/٥٥ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٩٥

(٣) أبي شوقى ١٣٣

(٤) مصطفى كامل ١٤٤ الرافعى

(٥) الشوقيات ١/٢٧٧

(٦) مصطفى كامل ٢٨١

(٧) مصطفى كامل ٣٥٦ ومحمد فريد ٣٤

وكان يعجب بشعره ، ويصفه بأنه « الغدير الصافى فى آلاف الغدب ، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون » . وكان يخصص لقصائده أسمى مكان فى اللواء [١] . وفى ذلك يقول شوقى فى رثائه :

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى ... وتُحِلُّ فوق النيرات مكانى

ماذا دهانى يوم بنتَ فعقَّنى ... فيك القريض وخاننى إمكانى [٢]

وزار الفقيد وهو فى فراش مرضه الأخير ، فطلب إليه أن يرثيه ، وفى ذلك يقول :

ولقد نظرتك والردى بك محْدِق ... والداء ملء معالم الجثمان

.....

فهششتَ لى حتى كأنك عائدى ... وأنا الذى هد السقام كيانى

.....

وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه ... من أدمعى وسرائرى وجَنانى [٣]

ويقول فى ذكراه سنة ١٩٢٦ .

يا أخا النفس فى الصبا لذةَ الروح فى الصِّغر

وخليلا ذخرتُه لم يقوّم بمدّخر

حال بينى وبينه فى جفاءاته القَدَر

كيف أجْزِى مودّةً لم يَشُبْ صَفْوَها كدَر [٤]

وقد بقيت هذه الصلة قوية لم يُضْعف من قوتها الجفاء الذى رَنّق بين مصطفى كامل والخديو عباس ، إذ جنح الخديو إلى سياسة المواداعة والوفاق مع السير إلدون غورست الذى خلف لورد كرومر ، ولم يرتض مصطفى كامل هذه المواداعة ، وأعلن سخطه فى كتاب شديد اللهجة وجّهه إلى الخديو ، ونشره فى الصحف ، وقطع علاقته بعباس .

فى هذه الآونة لم يتخل شوقى عن صديقه مصطفى ، على ما فى صلته به من إحراج ، بل على ما فى هذه الصلة من تعرض لغضب الخديوى ، وفصل من القصر . بل كان

---

(١) مصطفى كامل ٣٧٩ (٢) الشوقيات ٣/١٧٠

(٣) الشوقيات ٣/١٦٩ (٤) الشوقيات ٣/١٠٠

شوقى « المواسى الوحيد لمصطفى فى مرض الموت »[١].

وهنا نتساءل : متى نشر شوقى رثاءه الأول لمصطفى كامل ؟

ذهب بعض الذين كتبوا عن شوقى إلى أنه نشر رثاءه بعد عام كامل[٢] . وهى إشاعة كادت ترسخ فى أذهان الدارسين ، كأنها حقيقة لا ريب فيها .

لكن الحق أن شوقى نشر مرثيته بعد وفاة مصطفى كامل باثنى عشر يوما ، لا بعام ولا بشهر ، فقد قرأتها فى (اللواء) بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨م .

لكن هنا سؤالا آخر : لماذا حبس شوقى عاطفته الحزينة ، فلم ينفس عنها فى يوم الفجيعة ؟

يعلل الدكتور شوقى ضيف لذلك — بعد أن ذهب إلى أن شوقى قال قصيدته بعد عام كامل — بأن « أنظار الأمير متجهة إلى تركيا ، وقلبا اتجهت إلى الشعب ، فاتجهت إبرة الشاعر مع القطب . . . وقد أصاب القدر الشعب فى أعز بنيه وأحبهم إليه ، مصطفى كامل ، وكان صديقاً لشوقى فى صباه وشبابه ، ومع ذلك لم تتحرك القيثارة ، ولم ينبض قلب الشاعر ولم يخفق إلا بعد عام ، لأن سيده لم يكن راضياً عن مصطفى ، لاختلافهما قبيل وفاته فى بعض وجوه الرأى ، فلم يستطع أن يتلو شعراً أو ينشده فيه يوم مصيبة الوطن به »[٣]

وقد عرفنا أن شوقى رثى مصطفى بعد أيام قليلة ، فالتعليل لتأجيله الرثاء بأنه مجاملة للخديو عباس تعليل غير صحيح .

وعلى الرغم من ذلك فإنى أتساءل : لماذا لم يرث شوقى مصطفى كامل يوم وفاته كما رثاه حافظ وصبرى ؟

فقد حزن إسماعيل صبرى أشد الحزن لما مات صديقه مصطفى كامل ، وألقى على قبره يوم تشييعه فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م مطلع قصيدته الباكية :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

---

(١) من مقال داود بركات . مجلة أبولو صفحة ٣٦٥ ديسمبر سنة ١٩٣٢

(٢) شوقى شاعر العصر الحديث ١٤٥ شوقى ضيف

(٣) شوقى شاعر العصر الحديث ١٤٥

فبكى بكاء أعجزه عن إلقاء ما بعد المطلع ، ثم ألقاها فى حفل تأبينه .

وألقى حافظ إبراهيم على قبر مصطفى يوم وفاته قصيدته التى مطلعها :

أيا قبر هـــذا الضيف آمال أمة فكبر وهلّل والق ضيفك جاثيا

أكان سبب ذلك أن شوقى خاف الخديو فلم يرث مصطفى كامل ؟

لا . فقد رثاه بعد اثنى عشر يوما ، فلا خوف إذاً ولا مجاملة .

لأن هذه الأيام القلائل ليست من السعة بحيث تغير رأى الخديو فى مصطفى كامل ، وتخفف من بغضه له . ولو أن صمت شوقى كان خوفاً من الخديو أو مجاملة له ، أو انتظاراً لتغير رأى الخديو فيه لكان على شوقى أن يصمت عاما أو بضعة أعوام ، ثم يرثى مصطفى كامل .

وإنما السبب فيما أرى أن عاطفة الحزن أحيانا تعُل الشاعرية ، وتشل التفكير ، وتطغى على الإبانة ، فيضطر الشاعر إلى مهلة من الزمن يستجمّ فيها ، ويستعيد صوابه ، فيرثى أحبابه .

أما فى معمعة الأسى فإنه كثيراً ما يجنح إلى الدموع ، ويركن إلى الزفرات والأنات ، ويستريح إلى الأحيلة والذكريات والحسرات ، فى صمت حزين .

وها هو ذا شوقى يقرر هذا المعنى فى رثائه لوالده حوالى سنة ١٨٩٧ :

ســـألونى لِمَ لمْ أرثِ أبى ورثاء الأب دَيْنٌ أى دَيْن

أيها اللوام ما أظلمكم أين لى العقل الذى يُسعِد أين[1]

ويقول فى رثائه لمصطفى كامل :

ماذا دهانى يوم بِنْتَ فعقّنى فيك القريض وخاننى إمكانى[2]

ومن هنا تعود كثير من الشعراء أن يلقوا مراثيهم فى حفلات التأبين ، بعد أربعين يوما أو أكثر أو أقل .

على أنه من الراجح أن شوقى رثى مصطفى كامل يوم الفاجعة ، أو شرع بعد قصيدته فى رثائه من يوم وفاته ، فإن صديقه داود بركات يقول «إن قصيدته فى رثاء

(١) الشوقيات ٣/١٦٤ (٢) الشوقيات ٣/١٧٠

مصطفى كامل من أروع الشعر ، نظمها شوقى فى الليل ، ونشرت فى الصباح »[١] . فلعلها لم تنشر والتبس الأمر على الكاتب ، أو لعله يقصد بنشرها أن شوقى قرأها كلها أو قرأ ما تم منها على بعض خاصته .

والصبغة العامة لمرثية شوقى الأولى أنها زفرات ملتهبة ، وأنات موجعة ، من صديق على صديق . وليس فيها من الإشادة بجهاد مصطفى كامل فى السياسة والوطنية إلا لمحات.

فهو كما قال صديق الأستاذ عمر الدسوقى « رثى بقصيدته هذه صديقاً حميماً ، ولم يرث زعيماً عظيماً ووطنيا وإماماً من أئمة الجهاد ، لأنه قد تأثر فى رثائه بسياسة القصر حينذاك ، ولأن علاقة مصطفى كامل بعباس قد انقطعت . . . على أن شوقى قد تدارك فيما بعد ما فاته فى هذه القصيدة »[٢] .

٥ — وكان صفى الخديو عباس ، ومستشاره ، وشاعره . وكان الخديو كلفاً به ، يستدعيه فى كل وقت[٣] ، ولم يكن يخيب له رجاء .

لذلك عرف الناس دالته على عباس ، فكان أصحاب الحاجات يحتشدون عند شوقى ، وهو يسأم من الشفاعة والرجاء[٤] .

وقد حضر الخديو وزوجته زفاف أمينة بنت شوقى ، فى وقت لم يكن الخديو يحضر فيه عرساً من أعراس الشعب[٥] .

ولا شك أن الخديو وشوقى كانا يتجاوبان معاً بالوطنية ، وبالضيق من الاحتلال البريطانى ، وبالتعاون على تقويضه . فشوقى هو الذى كان وسيطاً بين الخديو عباس وكاتب أرمنى يحمل فى الصحف الإنجليزية على لورد كرومر[٦] .

وأدرك الإنجليز أن شوقى من أعدائهم الخطرين على سياستهم ، فنصح لورد كرومر الخديو عباساً أن يبتعد عن مصطفى كامل وعلى يوسف وأحمد شوقى[٧] .

---

(١) مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٣٦٥

(٢) فى الأدب الحديث ٢/٩٤ـ٩٦ عمر الدسوقى

(٣) أبي شوقى ٤ (٤) أبى شوقى ١٤ (٥) أبى شوقى ١٥

(٦) مذكراتى فى نصف قرن ، أحمد شفيق باشا ، القسم الثانى من الجزء الثانى ١٢٤

(٧) المرجع السابق ١٢٠

ثم حالوا بين الخديو عباس والعودة إلى مصر ، لأنهم خشوا أن ينقل هو وحاشيته أعمالهم ، وهم يريدون أشخاصا من الحاشية أحدهم شوقى (١)

وبعد خلع عباس وتولية السلطان حسين لم يستطع شوقى أن يخفى حنقه على الإنجليز ، فكان أشجع إنسان مصر فى ذلك العهد المملوء بالمخاوف والأهوال ، إذ كانت السلطة العسكرية البريطانية قابضة فيه بيد من حديد على كل النواصى والأقدام ، بل على الأفكار والأوهام ، فقد صارح شوقى السلطان حسينا بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان ، إذ أرسل قصيدته المشهورة التى أشار فيها إلى الحمال القائمة بقوله : إن الرواية لم تتم فصولا . والتى يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنـــائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا

فقامت قيامة السلطة العسكرية البريطانية لهذا النذير ، واضطربت كل الاضطراب ، لأنها خشيت أن تنتشر بقعة الزيت فى رقعة مصر ، بسبب هذه الصيحة الشوقية التى كان لها أثر بعيد فى النفوس ، ووقع فعال فى القلوب ، فأمرت بنفيه »(٢) .

(٦) أما صلته بسعد زغلول فكانت وثيقة ، ثم عرتها جفوة ما لبثت أن انتشعت .

يقول حسين شوقى : « كانت العلاقة بين سعـــد باشا وأبى فى ذلك الوقت على أحسن ما يرام ، وكان قد اعتراها فى الماضى شىء من الفتور . ويرجع الفضل فى إزالة الجفوة إلى مساعى الأستاذ الجديلى الذى كان يحبه كل منهما ويقدره .

كان أبى يذكر على الدوام عهوداً كريمة كانت بينه وبين سعد باشا ، وكان من أغلى الذكريات عنده ساعةٌ أهداها إليه سعد فى مناسبة كريمة ، ذلك أن أبى كان بسويسرا والتقى هو وسعد ، وكان سعد يختار هدية الزفاف بأم المصريين ، فاشترك أبى فى الاختيار ، ثم اختار سعد فى الوقت نفسه تلك الساعة وأهداها لأبى .

وقد ذكر لى الأستاذ الجديلى أن التقاء سعد باشا وأبى لأول مرة — بعد الجفوة — كان مؤثراً ، تبادلا فيه ذكريات عزيزة ، وذكرا أصدقاءهما فى الماضى ، وذكرا

---

(١) المرجع السابق ٢ : ٣٤٢ .

(٢) من مقال أحمد زكى باشا . مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ صفحة ٣٨٥ .

نكات عبد الكريم سلمان وحفني ناصف ، واجتماعات الأميرة نازلي ، وقاسم أمين ، واستطاب سعد المجلس ، واستزاد أبي من حديثه » (١) .

ويقول أيضاً : « وكان أبي كثير التردد إذ ذاك على بيت الأمة ، وكان يستصحبني أحيانا إلى هناك ، فكنت أذهب معه وأنا مغتبط ، لأن شخصية سعد باشا كانت جذابة جداً ، ولأن دولته كان يتفضل بملاطفتي » (٢) .

وقد كان كل منهما معجبا بصاحبه ، يدل على ذلك أن سعداً لما حضر زفاف علي التقط مصور صورة له هو وشوقي ، ودار بينهما حوار رقيق يبين عما يكنه سعد لشوقي من تقدير صحيح وود مكين ، ولما نظر الأستاذ الجديلي إلى الصورة وقال : هذه صورة الخالدين ، قال سعد مشيراً إلى شوقي : هنا الخلود (٣) .

يتضح إعجاب شوقي بسعد ، وودّه له من قوله في رثاء سعيد بك زغلول ابن أخي سعد :

سيقولون ما رثاه على الفضـ ـل ولكنْ رثاه زُلْفَى لخاله
أيهم من أتى برأس كُلَيْب أو شفى القطر من عَياء احتلاله
ليس بيني وبين خالك إلا أنني ما حييت في إجلاله
أتمنى لمصر أن يجرى الخيـ ـير لها من يمينه وشماله
لست أرجوه كالرجال لصيد من حرام انتخابهم وحلاله
هو أهل لأن يرد لقومي أمرهم في حقيقة استقلاله
وأنا المرء لم أر الحق إلا كنت من حزبه ومن عماله (٤)

ويقول في رثاء عاطف بركات باشا ابن أخت سعد :

ولم تحو الكنانة آل سعد أشدَّ على العِدا منكم نِباعا
ولم تحمل كشيخكم المفدّى نهوضاً بالأمانة واضطلاعا

---

(١) أبي شوقي ١٢٣ (٢) المرجع السابق ١٢٦
(٣) المرجع السابق ١١٨ (٤) الشوقيات ٣/١٤٣

وما سعد بمتجر إذا ما ... تبرعت الحقوق شرى وباعا
ولكن تحتمى الآمال فيه ... وتشرع الحقوق به ادّراعا[1]

أما رثاؤه لسعد زغلول فهو قصيدة باكية . وتمثال رائع لجلال سعد وجهاده وزعامته ، وفيها إشارات إلى الصداقة التى جمعتهما ، كقوله :

أين من عينٌ نفس حرة ... كنت بالأمس بعينٌ أراها ؟
كلما أقبلتُ هزت نفسها ... وتواصى بشرُها بى ونداها
وجرى الماضى فاذا ادّكرتْ ... وادّكار النفس شىء من وفاها
ألمح الأيام فيها وأرى ... من وراء السن تمثال صباها
لست أنسى صفحة ضاحكة ... تأخذ النفسَ وتجرى فى هواها
وحديثا كروايات الهوى ... جدّ للصّب حنينٌ فرواها
أين منى قلم كنت إذا ... سمته أن يرثى الشمس رثاها
خاننى فى يوم سعد وجرى ... فى المرائى فكبا دون مداها[2]

ويطول بنا المقال إذا ما عرضنا لصلاته بالساسة والزعماء ، فحسبنا هذه الأمثلة ، وحسبنا الإشارة إلى صلاته بغيرهم كعبد الخالق ثروت [3] ، وعبد العزيز جاويش [4] ، وعمر لطفى [5].

(٧) لكن من الإنصاف للحقيقة أن شوقى كان قبل نفيه مقيداً بالقصر ، وبسياسته المرسومة ، فكان يحلق بجناح غير طليق ، لأن للقصر قيوده الملزمة ، وأحكامه المطاعة .

ومن هنا كان شعره الوطنى قبل النفى أقل من شعره بعد النفى ، وأضعف .

فلما نُفِى أرّث النفىُ وطنيته ، لأنه انطلق من إسار القصر ورسومه ، ولأنه ذاق مرارة العدوان البريطانى على حريته وحرية قومه .

---

(١) الشوقيات ٣/١٠٨ النباع : جمع نبع وهو شجر للقسى والسهام (٢) الشوقيات ٣/١٩٠
(٣) الشوقيات ٣/٧٠ (٤) الشوقيات ٣/٧٤ (٥) الشوقيات ٣/٩٢، ٩٣، ٩٥

لهذا نجد شعره بعد النفي يلتهب وطنية ، ويمتد فيشمل مصر والعرب والإسلام على نطاق أوسع مما كان قبل أن ينفى .

كان نفيه إذاً نعمة على مصر ونعمة على الأدب ، وكان اتصاله بالقصر نقمة على مصر ونقمة على الأدب . كما كان تحرر حافظ من الوظيفة الحكومية خيراً على الأدب وعلى مصر ، وتقيده بالوظيفة ضيراً على الأدب وعلى مصر .

فلم يكن عجيباً أن سكت شوقي إذ كان حافظ ينطق ، وأن نطق شوقي إذ كان حافظ يصمت .

فيا ليت شوقي لم يبتغ إلى القصر وسيلة ، ويا ليت حافظاً لم يجد إلى دار الكتب طريقه . لكن الحياة لا تنيلنا كل ما نتمنى ، فليس لنا إلا أن نردد قول الشاعر العربي القديم :

ليت وهل ينفع شيئاً ليت

obeikandl.com